روايات مصرية للجيب

سلة الروايات

14

Looloo
www.dvd4arab.com

لوتس

البحران الذهبي

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

لـوتـس

فى قلب التاريخ ، تسكن حضارة مصر القديمة .
بكل جمالها وقوتها .
حقائقها وأساطيرها .
نورها ونارها .
من قلب النيل نبعت هذه الحضارة .
كزهرة لوتس عطرة الرائحة .
ندية الملمس .
متألقة الألوان .
وإلى قلب الماضى ، نبحر فى قارب من البردى .
نجوب أجواء زمان ولّى .
مخلفًا آثاره التى لاتزول .
شامخة فى وجه الدهر .
وفى وجوه حَمَلة معاول الهدم والتشويه .
إنها زهور أينعت منذ فجر الوجود .
فتفتحت أوراقها .
وانتشرت أنوارها إلى كل الحضارات الإنسانية الأخرى .
إنها زهور لوتس .
فى قلب مصر .. القديمة .

محمد سليمان

١ـ غـريـب ..

الفجر يتنفس .. ينفض نعاس الظلام الليلى عن عينيه الرماديتين ، يلقى بغلالة شفافة من الضوء الشحيح على السماء والأرض ، ويرسل نسائم ندية معطرة بشذى يوم جديد ، يشرق بشمس النهار على (طيبة) .. النهر يتدفق من الجنوب إلى الشمال فى رحلته الأبدية نحو شاطئ الخلود ، يشيد بذراعيه المائيتين أعمدة الحضارة ، يسطر بحروف من نور تاريخه العتيق ، ويرنو بعين الأمل المشرق إلى غده .. والبقاء ..

الضفاف يغرقها الطمى الغض ، تصطف على امتدادها القوارب والمراسى والشواديف ومقاييس الماء الملكية ، وتشرف عليها من عل حقول القمح والقطن وأشجار الفاكهة ، كأنها أسوار خضراء متوسطة الارتفاع تؤمن للنيل مجراه الأبدى الآمن ..

السكون يطبق بفكيه الأصمين على كل شىء .. كل الموجودات لم تزل ترزح فى قيود سلطان النوم العميق

الغاشم .. السكون التام اللهم إلا من خرير المياه الجارية ، وحفيف أوراق الشجر البعيد إذ تداعبه دفقات الهواء الناعم فى رقة وحنان ، و ...

.. ضحكات أنثوية عالية ..

ـ يالك من شقية .. كفى عن هذا يا (مريت) !

لم تكن الأصوات مألوفة فى مثل هذا الوقت والمكان ، ولكن أحدًا غيرهن لم يكن موجودًا ليسمع ، أو ليرى ..

ـ وهل أفضل من حمام صباحى منعش ؟!

.. أو هكذا كان الثلاثة يظنون !

ـ توقفا عن هذه التصرفات الطفولية .. لابد أن نعود قبل أن تشرق الشمس ..

قالتها أقصرهن ، فتاة مكتنزة القوام يحمل وجهها ملامح بريئة تنم عن طيبة لاحدود لها ، وتحمل نبرتها حكمة واتزانًا يتجاوزان بكثير ما يدل عليه مظهرها من عمر ، وترتدى ثوبًا أبيض من الكتان الرخيص ، بدا أنها تحرص بشدة على ألا يبتل أو يتسخ بفعل الطمى ..

ـ مازال أمامنا متسع من الوقت يا (آهورة) .. لن يستغرق ملء الجرار أكثر من ثوان ..

ردت أجملهن ، فتاة على قدر وافر من الفتنة ، لها قوام سمهرى يليق بأميرة حسناء ، وشعر بنى طويل تركته يملأ ظهرها منسدلاً فى حرية ، وعينان مرسومتان بالكحل يشع منهما بريق عابث ، وقد ارتدت ثوبًا من الحرير الأزرق أضاف لحسنها حسنًا ، ولجمالها جمالاً ..

قالت (آهورة) فى شىء من الخوف :

ـ لو استيقظ زوج أمى ولم يجد ماءً ليغتسل ، فسألقى من العقاب أشده ..

ـ لاتكونى سخيفة .. (مريت) محقة ، الوقت مازال طويلاً ..

قالتها أكثرهن سمرة ، فتاة تلمع أسنانها اللؤلؤية من بين شفتيها الغليظتين السوداوين ، ملامحها تشير دون كثير من التخمين إلى (النوبة) الجنوبية ، وكذلك شعرها الأسود الخشن الذى عقدته فى ضفيرتين لم يكف طولهما لملامسة كتفيها ، أيضًا القرطان الكبيران ـ على شكل حلقتين واسعتين ـ

فى أذنيها والثوب المزركش بألوان زاهية والحناء التى تخضب كفيها فى أشكال فنية رائعة ، كل هـذا وشى بذوق جنوبى لاتخطئه العين الواعية ..

قالت (مريت) وقد أشع بريق العبث من عينيها أكثر :

ـ يبدو أن (شيرى) تتوق لحمام صباحى آخر !

وقبل أن تعى الفتاتان ماقالته ، أسرعت تنحنى وتقذف بالماء فى وجه (شيرى) الأسمر المبتل هاتفة بمرح طفولى :

ـ إليك به إذن ..

صرخت (شيرى) متراجعة بظهرها وهى تحاول أن تتقى المـاء بكفيها ، لكنـه أصابها برغم ذلك ، بينما أسـرعت (آهورة) تحاول الابتعاد عـن مرمى المـاء ، وهتفت فى سخط عندما انغرست قدماها فى الطمى :

ـ تبًّا .. لقد اتسخ طرف الثوب !

لم تسمع دمدمتها الغاضبة أى منهما ، وأسرعت (شيرى) تنحنى وهى تهتف باستمتاع مَن أعجبته اللعبة :

ـ ليكن يا (مريت) ..

وحملت بكفيها بعضًا من المـاء الجارى استعدادًا لقذفـه ، متابعة بحماسة :

ـ أنت البادية ..

بادلتها (مريت) الصراخ بأفضل منه ، وهى تحـاول بدورها اتقاء الماء عبثًـا ، وعقدت (آهورة) حاجبيهـا فـى ثورة مكظومة إذ قالت رافعة من نبرتها الحانقة :

ـ سأبتل .. لتكفا عن هـذا العبث وإلا تركتما من فورى وعدت إلى المنزل ..

توقعت ألا يرضخا لتهديدها كالمعتـاد وأن يستمرا حتى تشرق الشمس ، لكنهمـا لدهشتهمـا الشديدة توقفتا ، لارضوخا لتهديدها ، ولكن عنـدما هتفت (شيرى) فى انبهار مشيرة بسبابتها إلى السماء التى بدأ اللون الرمادى فيها يرحل إلـى الغرب :

ـ انظرا ..

وأكملت وهما تلتفتان بالعيون نحو ما أشارت :

ـ (سبوديت) (*) !

(★) سبوديت : نجم معروف عده الفراعنة إلهًا لسيناء .. سماه العرب (الثريا) ، ذلك لأنه يبدو متلألئًا وكأنه عدة نجوم .. وكان الآشوريون وأهل بابل وما بين النهرين يعبدونه ، فيما يسميه الآسيويون أيضًا « عشتروت » زوجة « بعل » إله كوكب المشترى !

التقت عيونهن ـ المتسعة انبهارًا ـ عند نقطة فضية لامعة فى كبد السماء ، تشع ببريق ميزها عن سواها من النجمات المتناثرة دونما نظام ، وبعد برهة من الصمت غمغمت (مريت) من بين أنفاسها المتلاحقة فيما يشبه اللهاث :

ـ يا للروعة !

ـ جميلة بحق !

قالتها (آهورة) راتية ببصرها لأعلى ، محاولة أن يبدو صوتها على النمط الذى اعتادته من الرزانة ، فى حين هتفت (شيرى) بنوع من الإجلال :

ـ تقول جدتى إن سعيد الحظ الذى يراها يحق له أن يتمنى أمنية ، وستكون هى كفيلة بتحقيقها !

مطت (آهورة) شفتيها المتلألئتين قائلة بامتعاض :

ـ خرف عجائز لا أكثر ولا أقل !

تجاهلت (مريت) تعليقها اللاذع وقالت دون أن يخبو فى ناظريها الإشعاع العابث :

ـ معنى هذا أن لكل منا الحق فى أن تتمنى أمنية ..

هزت (شيرى) رأسها أن نعم ، فتألقت عيناها أكثر وهى تهتف فى جذل :

ـ ليكن ، سأكون البادئة ..

ثم إنها ضمت كفيها أمام صدرها ، وأغلقت عينيها لتهمس باسمة فيما يشبه الخفر :

ـ أتمنى أن أتزوج من (آنى) !

ابتسمت (شيرى) ، بينما عاودت (آهورة) مط شفتيها لتقول باشمئزاز :

ـ عشم (ست)(*) فى الجنة !

ـ لقد قابلته منذ يومين ، أليس كذلك ؟

سألتها (شيرى) وقد اتسعت بسمتها ، فتخضب وجه (مريت) بحمرة الحياء وهى تجيب :

ـ أجل .. كان وسيمًا جدًا كالمعتاد ، وحنونًا جدًا جدًا !

(★) ست Seth : إله الشر والصحراء والعواصف عند المصريين القدماء ، تروى الأسطورة الشهيرة أنه تآمر على مقتل أخيه (أوزوريس) فوضعه داخل تابوت وألقى به فى مياه نهر النيل ، وتروى إحدى البرديات الصراع التفصيلى بينه وبين ابن أخيه (حورس) الذى عاد مطالبًا بحقه ، فناله فى النهاية واندحر الشر كالمعتاد .. اتخذ صورة مخلوق غريب له جسم كلب ، وذنب طويل مشقوق الطرف ، وخطم رفيع مقوس ، وعينان لوزيتان ، وأذنان طويلتان مستقيمتان ..

ـ خمنتُ هذا ..

قالت (شيرى) ، ثم استطردت مفسرة :

ـ قَلَبَ سيدى النبيل (نخت) المنزل يومها بحثًا عنه دون جدوى ، لكنه عاد فى آخر اليوم مسرورًا على غير المعهود ، حتى عندما وبخه سيدى (نخت) لم يغضب أو يثر ، وإنما قال له بكل هدوء : (كنت أصيد أسماك النهر يا أبى) !

ثم إنها غمزت (مريت) وهى تضيف فى خبث أنثوى ذى مغزى واضح :

ـ يبدو أنه صياد ماهر حقًا !

ضحكت (مريت) فى خفوت ، ولم تدع (آهورة) هذه اللحظة الصافية تمر دون كدر ، فقالت :

ـ لم نسمع من قبل أن ابن نبيل طيبى مرموق المكانة قد تزوج بصديقة لإحدى خادمات البيت الكبير !

قالت (مريت) بعد انعقد حاجباها فى ضيق :

ـ ماذا تعنين يا (آهورة) ؟

ـ حديثى أوضح من أن أفسره يا (مريت) .. لاتبنى قصورًا من الوهم فى الهواء الطلق ..

قالتها (آهورة) فى تحد ، فما كان من (شيرى) إلا أن حاولت تلطيف الجو المنذر بالرعود ، محولة دفة الحديث إلى جهة أقل حدة :

ـ ماذا ستقولين لو سمعت أمنيتى إذن ؟

وقبل أن تقول أى منهما شيئًا ، سارعت تكمل وهى تشخص ببصرها إلى النجمة الساطعة من بعيد ، فى أغوار السماء السحيقة :

ـ إننى أتمنى لو أحتل مكان ومكانة السيدة الكبيرة (نوب) ، زوجة النبيل (نخت) نفسه !

ضربت (آهورة) راحتيها ببعضهما وهى تقول فى تهكم ، لم يفقدها لهجتها الرزينة الصارمة :

ـ الجنون أصابكما دونما شك !

سألتها (شيرى) ولهجتها تميل إلى العمق :

ـ وما نفع الأمنيات يا صديقتى إن لم تجنح بنا نحو آفاق المستحيل ؟

ـ أن تصبح خادمة البيت هى سيدته أمر يتجاوز حتى آفاق المستحيل !

قالتها (آهورة) باستخفاف ، وتبسمت (مريت) مجددًا ـ ربما ليس لسبب إلا إغاظة (آهورة) ـ وقالت بحبور لاح فيه شيء من التصنع :

ـ ستكونين حماة رائعة لى وقتها يا (شيرى) !

فتحت (آهورة) فمها لتنطق بعبارة انهزامية أخرى ، لكن (شيرى) سبقتها قائلة فى حث وإلحاح :

ـ دورك يا (آهورة) ، هيا قبل أن يخبو ضوء النجمة فتفقد أمنيتك قابليتها للتحقق .. هكذا قالت جدتى فأسرعى بحق السماء ..

قالت (آهورة) فى ترفع شابه بعض السماجة :

ـ لن أشارككما هذا الهراء .

ـ هيا ، لاتكونى سخيفة ..

ـ لن تخسرى شيئًا ..

أخذت الفتاتان تلحان عليها بقوة ، حتى قالت فى النهاية كمن يخرج رأسه من مستنقع :

ـ حسن .. حسن .. أتمنى أن ..

وأخذت تبحث فى عقلها عن أمنية ، لكنها ـ لدهشتها ـ لم تجد ، كأنها فقدت القدرة على التمنى !

ـ أتمنى أن ..

وقالت أول ما جال بخاطرها ..

ـ أتمنى أن أقتل زوج أمى (ثاى) !!

ران الصمت بعد ما قالته ، ولاح الإشفاق جليًا فى نظرات الصديقتين ، فما كان من (آهورة) إلا أن قالت متغلبة على سواد مشاعرها بسواد السخرية :

ـ أمنية مستحيلة أخرى ، أليست كذلك ؟

سألتها (مريت) فى تعاطف حقيقى ، وقد نسيت كل استفزازها لها منذ ثوان :

ـ أما زال يضربك ويقسو عليك ؟

نصف ضحكة ساخرة ، ثم أجابت (آهورة) :

ـ مازال يضربنى ويأخذ منى المال والطعام عنوة .. مازال سكيرًا عربيدًا قاسيًا .. مازال يعامل أمى كخادمة ويعاملنى كابنة للخادمة .. مازال (ثاى) هو (ثاى) ، وسيظل إلى الأبد .

سألتها (شيرى) :

- كم مرة عرضت عليك أن تهربى وتلتحقى معى بخدم النبيل (نخت) ؟

- وأمى ؟ أتركها فى براثن هذا الوغد الزنيم ؟

قالتها (آهورة) فى استنكار شديد ، ثم أردفت :

- ثم إنى لا أتقن أعمال الخدمة المنزلية ، حياكة الثياب هى المهنة الوحيدة التى أجيدها !

- لكن (ثاى) يلتهم كل أرباحك منها فى كرشه السمين !

- الحرية أفضل من العبودية فى جميع الأحوال .. هذا بالنسبة لى على الأقل ..

ثم إنها استدارت مشيرة إلى الأفق الذى بدأ الاحمرار الدموى يتسلل إليه ، وقالت :

- الآن هيا نعود ، فقد كادت شمس (رع) أن تصعد من خلف المعبد الكبير ..

اتحنين يملأن جرارهن الفخارية فى سكون تناقض مع الجلبة التى كن يصدرنها منذ قليل ، وبرغم الضوء الكالح الذى شاع

فى المكان من حولهن ، لم تفطن أى منهن إلى زوج من الأعين يراقبهن على مقربة ، ربما لغرق كل واحدة فى عالمها الخاص ، وأفكارها الجمة حول الأمنية التى تمنتها ..

لم ينتبهن حتى إلى الظل الذى ارتمى على صفحة المياه خلفهن !

- أتعلمين شيئًا يا (آهورة) ؟

قالتها (مريت) بعد أن فرغت من ملء جرتها حتى فاضت الحواف ، فقالت (آهورة) فى كآبة من تذكر الأمر الوحيد الذى ينغص عليه حياته :

- أعلم ماذا ؟

- أنت الوحيدة التى لم يبتل ثوبها بفعل المياه !

لم تنتبه (آهورة) لبريق العبث الذى عاد يستيقظ مجددًا فى عينى صاحبتها ، فردت إثر تنهيدة :

- لا أحب هذا النوع من المزاح الثقيل .

- حرىَ بك أن تجربيه أولاً !

واتهمر شلال المياه فوق أم رأس (آهورة) مصحوبًا بضحكة

(مريت) الصاخبة ، وأطلقت (شيرى) ضحكة من قلبها عندما رأت الأولى وقد ألجمت المفاجأة لسانها السليط ..

ـ ما رأيك ؟ أليس منعشًا بحق ؟!

سألت (مريت) من بين ضحكاتها ، وأخذت (آهورة) تمسح المياه بكفها عن وجهها المبتل بينما تعد فى رأسها سيلاً من السباب والتوبيخ ، لكن ..

ـ عمتن صباحًا يا جميلات الوادى !

لكن الصوت الآتى من خلفهن جعلها تبتلع لسانها ، وتشارك صديقتيها نظراتهما الذاهلة إلى ناطق العبارة !

ـ أنتن من هذا البلد ، ألست محقًا ؟!

كانت (شيرى) أول من قال مبهوتًا :

ـ من أنت ؟!

ـ تبدو غريبًا عن هذه الناحية !

قالتها (مريت) وهى تتأمله باستغراب ، فقال باسمًا وهو يهز رأسه بالإيجاب :

ـ نعم .. أنا غريب عن (طيبة) ..

النعت كان يناسبه تمامًا كما فكرت الفتيات ، فمظهره غريبٌ فعلاً ، تنبعث من عينيه الحادتين المسحوبتين لأسفل نظرات كالشرر ، لها إشعاع يرسل فى النفس شيئًا من الرهبة غير المسببة ، أنفه ضخم كأنف (أبى الهول) ، فمه دقيق للغاية بشفتين رفيعتين متشققتين ، كأنهما حافتى جرح قديم لاينزف دمًا ، لحيته مشعثة لم يهذبها منذ سنين ، يختلط فيها السواد بالبياض بالغبار ، كثيفة لحد أنها تتصل بحاجبية الضخمين ، أصلع إلا من شعيرات طويلة تحيط بجلدة الرأس الخاوية ، كسياج حول قطعة من الأرض البور ، يبدو على أعتاب الكهولة وإن دلت حيويته وبريق عينيه وأسنانه القوية على فتوة لم تزل ، ملابسه أيضًا كانت غريبة غير مهندمة ، بل وممزقة فى غير موضع ، وإن لم تتناغم حالتها الرثة مع ما تبدى فيها من ذوق وثمانة اختفتا خلف طبقات من الأتربة والأوساخ ..

بدا كصعلوك فى ثياب النبالة ، أو كنبيل يتظاهر بالصعلكة ، لكن هذا لم يكن ـ فقط ـ مثار الغرابة فى هيئته ، وإنما ـ أيضًا ـ ذلك اللوح من الخشب ، الذى ينتهى طرفاه بحبل تعلق فى رقبة الرجل ، ليستقر اللوح أمام صدره ، وفوقه ثلاث قطع من الحلىَ ذات الألوان الزاهية ، تعلقت بها أعين الفتيات رغمًا عنهن ..

ـ أنت بائع جوّال ؟!

سألته (شيرى) محاولة أن تفسر ببصرها كنه الحلىّ من على هذه المسافة ؛ بضعة أذرع تفصلهن عنه، أقدامهن غائصة فى مجرى الماء، وهو على الشاطئ الجاف يتبسّم مجيبًا :

ـ تقريبًا !

ثم إنه أشار إلى القطع الثلاث فوق اللوح الخشبى متابعًا :

ـ ولدىّ ما يسرّ النفوس العليلة !

سألته (مريت) فى جرأة ونزق :

ـ ماذا تحمل يا سيد ؟

ـ (قن) ، ادعى (قن) .

قالها وقد اتسعت بسمته كاشفة عن صفين منتظمين من الأسنان اللامعة، فعادت (مريت) تسأله مشيرة إلى القطع الثلاث :

ـ ما تكون هذه الأشياء يا سيد (قن) ؟

نظر إلى حيث أشارت، ثم أجاب وقد اكتسبت نبرته نوعًا من الغبطة الرصينة :

ـ كما ترين ؛ ثلاثة جعارين هى كل ما تبقى من بضاعتى الثمينة !

أوجست (آهورة) فى نفسها خيفة، وظهر هذا جليًا فى صوتها إذ قالت لصديقتيها فى خفوت :

ـ سنتأخر، هيا نعود لديارنا ..

تجاهلت (مريت) عبارتها وهى تشهق هاتفة فى إعجاب لامتناهٍ :

ـ يا لها من مبهرة !

أيدتها (شيرى) قائلة فى هدوء نسبى، وعيناها معلقتان بالجعارين :

ـ جميلة ؛ من يستطيع إنكار هذا ؟!

ـ هل ترغب أى منكن فى شراء واحد منها ؟

سأل (قن) فتعاظم الخوف فى صدر (آهورة)، وأجابت على الفور :

ـ لا نملك ما نشترى به جعرانًا من الجرانيت الرخيص ..

قالت (شيرى) :

ـ أجل ، لسنا بالثريّات يا سيدى ..

وأكملت (مريت) العبارة فى خيبة أمل عظمى :

ـ ولا من الأميرات أو صاحبات الحظوة الملكية ..

قال (قن) ولما تتبخر ابتسامته الهادئة كبحر رائق :

ـ ألا تبغين إذن الحصول عليها دون مقابل ؟

أشرق وجه (مريت) وهى تسأله هاتفة :

ـ حقًا ؟

ـ سيدى ، لا أحد يعطى شيئًا دون مقابل !

بلغ الخوف فى أعماق (آهورة) ذروته وهى تقولها مضيقة حدقتيها ، فهز (قن) رأسه بالموافقة وهو يرد بقوله :

ـ صدقت يا جميلة .. لكنى لا أبيع بضاعتى فى مقابل ذهب أو فضة ..

سألته (شيرى) متعلقة بخيط واهٍ من الأمل :

ـ فى مقابل أى شىء إذن ؟!

وأخذ صدر (مريت) فى العلو والهبوط وهى تقول :

ـ سأدفع عمرى كله من أجل الحصول على إحداها ..

ضحك (قن) حتى ظهرت نواجذه ، ثم قال وعيناه تلمعان بجذل :

ـ الثمن ليس باهظًا إلى هذا الحد يا جميلتى !

عقدت (آهورة) ساعديها أمام صدرها المبتل ، وقالت محاولة استقراء أفكار الرجل :

ـ أخبرناك أننا لسنا من الثراء فى شىء !

ـ سنعقد اتفاقًا صغيرًا فيما بيننا .

تألقت عينا (قن) أكثر ثم واصل :

ـ .. سأعطى كلاً منكن جعرانًا فى مقابل .. كلمة !!!

انعقدت ثلاثة أزواج من الحواجب ، وغمغمت (آهورة) مستنكفة :

ـ كلمة ؟!

ـ وأى كلمة تلك التى تساوى جعرانًا ثمينًا من الحجر الكريم ؟!

سألت (مريت) ذاهلة ، فأجاب (قن) وبسمته تأخذ سمتًا ناعمًا كالأفاعى :

ـ عهد لايُنقض ، ستعلق كل منكن الجعران فى قلادة صدرية ، ولن تخلعه أبدًا مهما حدث ..

انتظرن فى صمت أن يكمل ، لكنه قال فى النهاية :

ـ .. هذا كل شىء !

اتسعت عينا (مريت) وقد تعاظم ذهولها ، وتجمدت الملامح فى وجه (شيرى) ، أما (آهورة) فقد ازداد حاجباها انعقادًا وهى تسأله :

ـ أتعنى ما تقول بالفعل ؟!

هز رأسه الأصلع أن نعم دون أن ينطق ، فما كان من (مريت) إلا أن هتفت باندفاعها المعهود :

ـ لك هذا بكل سرور ياسيدى !

واندفعت بقدميها الغائصتين فى الماء نحوه ولما تنهى عبارتها بعد ، فحاولت (آهورة) استيقافها صائحة فى وجل :

ـ انتظرى يا (مريت) ، إننا لم ..

اندفع (قن) بدوره نحوهن مخترقًا المياه بطرف ثوبه الفخم ، ودنا من (آهورة) بسرعة منعتها من التراجع فى مواجهته .. لم تع إلا وهو يضع حول عنقها قلادة تنتهى

بجعران يشع بالزرقة السماوية النقية ، قائلاً بنبرة عميقة جعلتها تبتر عبارتها وتنظر فى وجهه كالمخدرة :

ـ أنتِ .. سأمنحك جعران اللازورد الأزرق .. إنه يشبهك ؛ وقور ومتحفظ مثلك ، لكنه يخفى خلف قشرته الجامدة الكثير والكثير ..

فرد طائر السكون جناحيه على رأسها .. أمسكت بالجعران المتدلى فوق صدرها بكفها البضة ، كأنها تحاول أن تقنع نفسها بكونه حقيقيًا لامحض أوهام ، أو أضغاث أحلام بعيدة !

ـ سيأكل من عنقك قطعة ..

قالتها (مريت) فى سعادة ، بينما حاولت (شيرى) أن تقول شيئًا ؛ أى شىء :

ـ ولـ .. ولـ .. ولكن !!

استدار (قن) إليها قابضًا على جعران فى لون قرص الشمس الذهبى الذى يوشك على البزوغ من خلف المعبد البعيد ، ومد يديه يقلدها إياه فى صمت شمل المشهد من جديد ، حتى قطعه صوته الذى ازداد عمقًا وجلالاً :

ـ وأنتِ .. لك جعران الزبرجد الأصفر .. مثلك هو ؛ حائر

لم تع إلا وهو يضع حول عنقها قلادة تنتهى بجعران يشع بالزرقة السماوية النقية ..

وخاضع ومستكين ، لكنه يملك داخله قوة تحرك الجبال الرواسى إذا ما دعا الداع ..

تنفست (شيرى) بصعوبة وهى تقبض على الجعران الأصفر الكريستالى فى جمود الغائب عن الواقع ، وبنفس المرح الطفولى سألت (مريت) مصفقة بكفيها :

ـ رائع .. رائع .. وماذا عنى أنا ؟ ماذا تبقى من أجلى ؟!

التفت (قن) إليها رافعًا فى قبضته الجعران الأخير ، الأحمر فى لون دماء (أوزوريس) ، هاتفًا وصوته يكتسب المزيد والمزيد من العمق :

ـ أما أنت .. فسأعطيك جعران الياقوت الأحمر .. مشبوبًا بالحماسة والحيوية والمرح والذكاء مثلكِ ، ومثلك أيضًا يخفى كل أحزان العالم وآلامه فى قلبه الفتىّ الصغير ..

وبعد أن استقرت القلادة فى عنقها ، وبعد أن تحسستها بأناملها فى غير تصديق ، وبعد أن خطا (قن) فى هدوء خارج المياه إلى الضفة ، وعلى وجهه المكدود أقصى علامات الارتياح ، كأنه ينوى الذهاب دونما كلمة زائدة ، أفاقت (آهورة) من ذهولها الصامت ، أو من صمتها الذاهل ،

لتسأله مجددًا وقد تخلت عنها نبرتها الهادئة الواثقة ، لتحل محلها أخرى مفعمة بالاستغراب والتشكك :

ـ أمتأكد أنت أن هذه الجعارين لنا دون مقابل ؟!

لم يجبها (قن) وواصل مسيره المطمئن ، تاركًا إياهن فى مستنقع الذهول الصامت ..

أو الصمت الذاهل ..

ولم تلمح أيهن ـ بالتأكيد ـ تلك البسمة المختلفة التى ارتسمت على شفتيه الرفيعتين ، حاملة ألف ألف معنى ..

وربما أكثر ..

* * *

٢ ـ خطـر ..

بخطوات سريعة ، وملامح متجهمة ، وبحزم صارم شابه بعض التوتر ، اندفع الأمير (تحتمس) داخلاً قاعته الخاصة فى القصر الملكى ، وخلفه ثلة من الحرس والعبيد ، وتوقف بإزاء مقعده الوثير فى صدر القاعة ، ثم استدار ناظرًا إلى الرجل الأسمر الواقف عند الباب الكبير مبديًا كل تبجيل لسموه ، وسأله مقطبًا وقد حملت نبرته قدرًا من الضيق غير المبرر :

ـ أين الوزير (سيتى) ؟! لِمَ لَمْ يحضر بنفسه ؟

ـ السيد (سيتى) وزير الجنوب لم يعد بعد من رحلته إلى (منف) ..

قالها الرجل فى هيبة تليق بحضرة ملك البلاد القادم ، وإن وشت لهجته بعدم تعوده مخاطبة أصحاب الدم الأزرق ..

ـ ومن تكون ؟

سأل الأمير (تحتمس) وقد شعر بأنه رأى الرجل مرة أو أكثر

من قبل ، لكن ذاكرته لم تسعفه بالتفاصيل ، فأجاب الرجل على الفور محاولاً أن يرتفع بنفسه إلى مستوى الحوار :

ـ أنا نائبه (تاوى) يا مولاى ..

هزَّ الأمير الشاب رأسه وقد تذكر هاتفًا :

ـ نعم .. نعم .. تذكرت ، لقد رأيتك من قبل .. ألست أنت من تقمصتك روح (أبيب) فى مدينة الأموات(*) ؟!

ـ بلى ، هو أنا !

ـ (سيتى) يتحدث كثيرًا عنك ؛ عن كفاءتك ونزاهتك ونشاطك الجم ..

صمت (تاوى) متلقيًا التقريظ بقلب ملأه الوجل ، وتشاغل بالنظر إلى لهيب المشاعل المتراقص فوق الجدران ماتعًا سواد الليل من الولوج إلى القصر ، بينما أمعن الأمير (تحتمس) النظر فيه قليلاً قبل أن يقول بحسم من تعود اتخاذ قرارات سريعة :

(★) راجع العدد السابق (شبح المقابر) ، (لوتس) العدد (٣) ، (سلة الروايات) العدد (١١) .

ـ على كل حال ، أنت تبدو أهلاً للثقة ..

ـ الشكر لمولاى ..

ـ دعنا الآن من هذه الترهات ، هل بلغتك أوامرى ؟

ملأ (تاوى) صدره بهواء القاعة ثم أجاب بلهجة عملية قاطعة :

ـ منذ الظهيرة يا مولاى ، وقد أمرت بتنفيذها على وجه السرعة القصوى ، فأطلقت رجال الشرطة وبعض رجال الجيش والحرس الملكى ممن لايعملون اليوم ؛ يمشطون (طيبة) ذراعًا ذراعًا ، حتى عثروا على الشخص المطلوب قبيل الغروب ..

اتسعت عينا الأمير (تحتمس) ، وهتف بذهول أنساه جلاله الملكى :

ـ أتقول : عثروا عليه ؟!!!

شعر (تاوى) بالزهو يغمر أعطافه ، لكنه لم يجعل لهجته تتغير أنملة إذ تابع :

ـ أجل ، مولاى .. شخص له نفس السمات التى أبلغتنا إياها .. وكان يحاول الهروب عبر النهر مستقلاً قاربًا من البردى ابتاعه من أحد الملاحين الفقراء !

ـ رجل أصلع له لحية ؟!

هز (تاوى) رأسه بالإيجاب ، وقال :

ـ .. ويرتدى ثوبًا رثًّا من السندس الأزرق ..

بلهفة لاحدود لها سأله الأمير :

ـ هل فتشتموه جيدًا ؟ ألم تعثروا على شىء معه ؟

بمزيج من الأسف والتسليم أجاب (تاوى) :

ـ كلا .. لم نعثر على أى شىء ..

لم تنقص الإجابة من حماسة الأمير (تحتمس) ذرة ، وعاود السؤال بلهفة أشد :

ـ وأين هو الآن ؟! أين ؟!

قال (تاوى) برباطة جأش :

ـ يرفل فى قيود معدنية صلبة ، ويحيط به رهط من الحرس الأشداء فى حديقة القصر يا مولاى !

كادت عينا الأمير تقفزان من محجريهما وهو يهتف كالملسوع :

ـ هنا ؟ فى حديقة قصرى ؟!!

ـ أجل يا مولاى ..

قالها (تاوى) مخفيًا دهشته من رد فعل الأمير المبالغ فيه ، تجاه أمر لايرى فيه أدنى غرابة ، فمن الطبيعى أن يصحب الأسير إلى هنا .. ماذا كان يتوقع الأمير غير ذلك ؟!

لكنه تجاهل خواطره مواصلاً :

ـ .. الغريب أنه فى حالة من الهدوء الباعث على الريبة ، تصور يا مولاى أنه يبتسم طوال الوقت !

أوشك الأمير (تحتمس) على أن يفقد صوابه وهو يهتف كالهاذى :

ـ أدخله فورًا .. أدخلوه الآن .. كلا .. كلا .. سأذهب إليه أنا .. لن أستطيع صبرًا .. هيا ..

أحنى (تاوى) رقبته إلى الأمام وهو يقول فى احترام جعله يغمض عينيه :

ـ كما تأمر يا مولاى ..

وعندما رفع رأسه وفتح عينيه ، كان الأمير (تحتمس) قد بلغ الباب الكبير بالفعل ، فانطلق على الفور خلفه ، ومن

خلفهما سار الحرس يحملون أسلحتهم، والعبيد يحملون المشاعل النارية المضيئة، حتى بلغ الجمع الحديقة التى أضاءت باللون البرتقالى الباهت المتأجج ، فتوقف (تحتمس) على درجات القصر وصدره يعلو ويهبط بلهاث سريع عميق من شدة الانفعال ..

ـ ها نحن أولاء نلتقى يا أمير (طيبة) !

فى منتصف الحديقة ، وبالقرب من بركة المياه كان يقف فى شموخ غير آبه بمن حوله من رجال غلاظ شداد ، يرتدون الزى الرسمى للشرطة ويسددون نحوه أسنة رماحهم استعدادًا لأى حركة غادرة ..

وكان يبتسم !

ـ أنت إذن (قن) .. آخر كهنة الظلام !

قالها (تحتمس) ، فتألق الجذل فى عينى (قن) وهو يقول بمرح لم يتناغم مع موقفه :

ـ لى الشرف أن أكون ..

ضم (تحتمس) أصابع قبضتيه، واعتصرهما فى قوة سائلاً :

ـ أين الجعارين الثلاثة ؟!

تعالت ضحكة (قن) طويلة ساخرة مستفزة ، وأجاب فى النهاية مسبغًا على المشهد المزيد من التوتر :

ـ سؤال تأخر كثيرًا يا .. يا سمو الأمير !

برزت النتوءات العظمية فى فكى (تحتمس) وصدغيه وهو يتساءل فى غضب هادر :

ـ هل .. هل وزعتها ؟

صمت (قن) هنيهة متلاعبًا بأعصابه ، ثم أجاب منتشيًا :

ـ أجل .. على ثلاثة من حسان الوادى الخصيب !

لدهشة العيون الرانية احتقن وجه الأمير (تحتمس) بشدة ، وهبط درجات القصر الحجرية فى لمح البصر مقتربًا من الرجل الذى لم تزل البسمة الصفراء من على شفتيه الرفيعتين ، وزمجر فى رنة أفزعت (تاوى) نفسه :

ـ يا لك من وغد زنيم !

بمنتهى الهدوء قال (قن) من خلال فمه الباسم :

ـ هـذا عملى الذى لا أجيـد سواه ؛ لا تنس أننى كـاهن من كهنة الظلام !

فوجئ الجميـع بالأميـر (تحتمس) يقبض على تلابيـه ووجهه ينطق بـالثورة والكراهيـة ، وتوترت الرمـاح المصوبـة إلى (قن) فى أيدى الجند ، بينما سأله (تحتمس) ضاغطًا على حروف كلماته بشدة ، كادت أن تتفتت لها أسنانه :

ـ لمن أعطيت الجعارين أيها الكاهن .. لمن ؟

أمعن (قن) فى غيه ، سائلاً بدوره فى عبث :

ـ وهل تتوقع منى إجابة ؟ لا تكن ساذجًا يا مولاى !!

سـادت همهمـات خافتـة رافضـة مستنكرة قول (قـن) .. وإذ رفع (تحتمس) ذراعه ليلطم الرجل فى وجهه بقوة ، ألقتـه أمتارًا كثيرة للخلف ؛ بهت الجنود والعبيد وقد أسقط فى أيديهم ، بينما ضاقت عينـا (تـاوى) غير مستوعب أبعـاد الموقـف الذى ما انفك يتعقد شيئًا فشيئًا ..

وعلى ظلال المشاعل المتراقصة الآتيـة من أعلى الدرجات ، رفع (قن) وجهه ـ الذى لم تغادره عين البسمة المستفزة ـ إلى الأمير .. كـان خيـط مـن الدم يسـيل مـن أنفـه ، وكانت عيناه تبرقان كأنهما حجرين من الماس ..

وأتى صوته هذه المرة مفعمًا بالحشرجـة والغلظـة وعلو النبـرة ، مكسـوًا بقدر لا بـأس به مـن الانفعـال واللهـاث ، وهو يقول :

ـ ثلاثة أيام أيها الأمير .. ثلاثة أيام لا غير .. ثلاثة أنهر وثلاث ليال ، تبدأ من الليلة .. ثم يبسط الجعران الذهبى قوتـه الكامنة على هذه الأرض ، فتغرق فى محيط المياه الأزلـى .. سيفيض النيل وترعد السماء ويلد السحاب سيولاً من الأمطار .. سيهلك الحرث والنسل ، والزرع والضرع .. ستهدم المعابد على رءوس الكهنـة ، والقصور علـى هامـات الأمـراء والنبـلاء ، والبيـوت علـى أجسـاد قاطنيهـا ، وتشتعل الحقول بـالنيران المقدسة ، وتغدو (طيبة) صفحة تاريخيـة مشرفـة ، لحضارة أفلت ، مثل غيرها من الآفلات ..

ـ أين الجعارين أيها المأفون ؟

صرخ فيه (تحتمس) ، لكنـه تجـاهل صراخـه واستطرد مواصلا كأنه يرتل أنشودة يحفظها :

ـ إنه الطوفان .. لـن يكـون هنـاك عـاصم مـن الطوفـان الرهيب .. لن ينجو من الهلاك كائن على وجه البسيطة ..

ستنطلق القوى السوداء من عقالها فى كهف الأحجار ..

وسيمتزج الأبيض بالأسود .. والحياة بالموت .. والماء بالنار .. وسينشر الجعران الذهبى جناحية المضمختين بعبير القبور على وجه السعادة المستحيلة ..

عاد الأمير (تحتمس) يصرخ فيه بكل ما وجد فى حنجرته من مقدرة :

ـ اصمت .. كفاك يا ملعون ..

جاوبه (قن) بضحكة هستيرية عالية ..

بدا كشيطان يضحك فى الدرك الأسفل من الجحيم ، حتى إن ضحكته جعلت القلوب تهوى فى الأقدام لفرط فظاعتها ، ثم إنه نهض متحاملاً على ذراعيه ، وتابع تراتيله البغيضة :

ـ لقد انتهت بهذا مهمتى على أفضل ما يمكن أن يكون .. أنا آخر سدنة معبد الظلام .. وآخر حملة قوة الجعارين .. ها قد حان وقتى أخيرًا لأتلاشى فى ذاتى .. لأنوب فى الوقت .. لأعود إلى النبع الصافى الرقراق ، ذى المياه العذبة النميرة .. ها قد حان وقتى أخيرًا لأصبح رمادًا تذروه الرياح الشاردة فى عيون الصباح .. لأكون عنوانًا أبديًا سرمديًا للموت ، ورمزًا باقيًا فى قلب (طيبة) إذ منحتها أفضل ما يمنح لمخلوق .. الفناء ..

ـ قلت لك اصمت .. اصمت ..

كادت حنجرة (تحتمس) أن تتمزق وهو يصرخ دون جدوى ، بينما رفع (قن) ذراعيه عاليًا إلى السماء الحالكة السواد ، منشدًا بغير توقف ، ودون كلل :

ـ يا حراس العالم السفلى .. يا أرواح الظلمة المنتشرة فى صدر الكون كالطاعون .. هأنذا أستصرخك .. احملينى إليك على أجنحة الليل البهيم .. ضمينى فى صدرك كالطعنة النجلاء .. إلى .. إلى ..

وقبل أن يصرخ الأمير بالمزيد ، وقبل أن يعى أى من الواقفين ما يحدث ، ازدحمت سماء الحديقة بأسراب من الغربان السوداء القبيحة الناعقة ، لم يدر أحد من أين أتت ، ولا كيف أقبلت ، وفى نفس الوقت أشع جسد (قن) بضوء أزرق شفاف ، أعمى العيون عن الرؤية ، لكنه لم يمنع الآذان عن سماع المزيد من هذيان كاهن الظلام المنظوم ..

ـ .. ثلاثة أيام أيها الأمير .. ويفنى الخير فى الخير .. ويفنى الشر والشر .. ويفنى العدم فى العدم .. ثلاثة أيام ، ويبسط الجعران الذهبى قوته الجبارة على وادى النيل ، فلا يبقى ولا يذر ..

وأصبح الصوت أكثر قوة وحدة ..

ـ المجد للظلام .. بكارة الدنيا .. وصمت الضجيج .. وحقيقة الزيف .. وقدر العالمين المقدور !

وفجأة ذهب الضوء ، وطارت الغربان بعيدًا إلى قلب المدينة تاركة بعضًا من نعيقها القبيح ، وبدأ الواقفون يستعيدون قدرتهم على الرؤية .. وعلى الإدراك ..

واتسعت العيون ذهولاً من جديد ..

ففى مكان الأسير الذى كان قد سقط فيه ، لم يكن هناك أثر له !

وللمزيد من الدقة ، لم يكن هناك أثر سوى لثوب رث من السندس الأزرق ، لايرتديه أحد !!

ـ مولاى .. أرأيت ؟!

ـ أين ذهب ؟!

ـ بحق السماء .. هذا الرجل ساحر دون شك !

ـ ربما يكون قد هرب !!

ـ ألم تر الضوء يشع منه بأم عينك ؟!!

ساد اللغط بين الجند والعبيد ، كل يدلى بدلوه فى احتمال ما حدث ؛ متحدثين بأنفاس متقطعة مبهورة .. أما الأمير (تحتمس) فقد حدق مليًا ـ بنظرات مشحونة بالتوتر ـ فى الثوب المتكوم فوق أرض الحديقة ، وأضواء المشاعل تواصل تلاعبها بالظلال فوق وجهه ، قبل أن يستدير ناظرًا إلى (تاوى) الواقف مقطبًا ، والأفكار تروح فى رأسه وتجىء ..

لامفر من الاعتماد على هذا الرجل ، هكذا فكر (تحتمس) ، وإلا فهو ....

ـ الخطر ..

غمغم بها الأمير بصوت غير مسموع كأنه يترجم أفكاره السوداوية إلى ألفاظ ..

وعندما رفع (تاوى) إليه عينيه الحادتين المتسائلتين ، لتلتقيا بعينيه اللتين ذابتا فى بحور من القلق ، أضاف بنفس الصوت الهامس :

ـ .. كل الخطر !

★ ★ ★

بين الأشجار الطويلة المتشابكة الغارقة فى صمت الليل

المهيب ، سارت (مريت) فى خفة محاولة أن تكتم أنفاسها لئلا تفضح وجودها فى هذا المكان المرعب ، لائمة نفسها على التسلل إليه فى هذه الساعة المتأخرة ، التى أخلد فيها كل أهل (طيبة) للنوم ، كأنها لصة محترفة !

ـ يالك من مجنون يا (آنى) .. ألم يكن فى وسعك الانتظار حتى الصباح ؟

همست بها لنفسها وهى تعرف أنها محض كلمات تقال ، لتخفى بها حقيقة مشاعرها ؛ هى أيضًا تشتاق للقياه وإلا لما تهللت أساريرها و(شيرى) تبلغها بالموعد والمكان ، ولما جاءت بقدميها لبستان الكروم برغم كل المحاذير ..

لتصارح نفسها إذن ، إنها تشتاق إليه ربما بأكثر مما يشتاق هو إليها ..

لكن .. أين هو ؟ ولماذا تأخر ؟!

هنا مكان اللقاء ، تحت أفنان الشجرة العتيقة ..

التقيا فى نفس المكان من قبل مرارًا ، فى غير هذا الميعاد بالطبع ..

ليكن .. لترتكن بكتفيها إلى جذع الشجرة حتى .....

ـ هل تأخرت ؟

شهقت فى فزع وهى تلتفت فى سرعة نحو مصدر الصوت من خلفها ، وأخذت تلهث عندما رأت على ضوء القمر الشحيح وجه (آنى) الوسيم الباسم ، الفائر بالشباب والحيوية ..

ـ .. يا لك من شقى .. أفزعتنى !

هز الفتى كتفيه العريضتين وهو يقول فى مرح هامس :

ـ وما الجديد ؟ أنت دومًا تفزعين !

هدأت أنفاسها ، ورفعت ناظريها تتأمله من جديد ، فلاحظت أنه يقبض بأصابع يديه على باقة من الزهر ، لكنها تجاهلت الأمر قائلة فى خوف بين ، وهى تتأمل المكان من حولها :

ـ كم أمقت الظلام !

مد ذراعيه إليها بباقة الزهر ظانًا أنها لم تلاحظه ، وسألها فى حنان :

ـ الظلام فقط ؟ أم أنا أيضًا ؟!

تخضب وجهها بحمرة الخفر ، فأشاحت به عنه وهى تقول فى دلال :

ـ (آنى) .. لا تكن سخيفًا ..

أمسك بكفها ، ورفع أصابعها إلى شفتيه ليلثمها ، فتحول وجهها إلى بركة من الدم ، وقبل أن يفتح فاه لينطق بما جاش فى صدره من أحاسيس ، نعق غراب أسود فوق الشجرة العتيقة ..

فزعت (مريت) ، وشهقت مجددًا ، فضحك (آنى) وقال :

ـ ألم أقل لك إنك دومًا تفزعين ؟!

حاولت أن تهدأ بسرعة كالمرة السابقة ، وقالت فى قلق مداعبة الجعران الياقوتى الأحمر المعلق فى قلادة حول رقبتها :

ـ كان الأفضل أن ننتظر مطلع الفجر ..

شعرت بدفء شفتيه وهما تلثمان أصابعها مجددًا ، وغمرها الحياء إذ سمعته يقول :

ـ لم يكن فى مقدورى أن أنتظر أكثر .. صار لى أكثر من يومين ولم أركِ ..

سألته مديرة وجهها عنه :

ـ أوحشتك ؟

تبسم مجيبًا :

ـ لا أخالك تجهلين الجواب .. السؤال الحقيقى هو : هل أوحشتك أنا ؟!

= ..... !

لم تنطق بحرف ، فاتسعت ابتسامة (آنى) وهو يقول :

ـ انظرى إلىّ .. وسأعرف الجواب من عينيك ..

تجاهلا نعيق غراب آخر انضم لخليله فوق غصن الشجرة ، ولم تجب (مريت) وواصلت إشاحتها بوجهها عنه ، فعاود (آنى) إلحاحه بلطف :

ـ هيا .. نظرة واحدة فقط ..

لم تستجب وإن لاحظ (آنى) ـ بعين العاشق ـ أن الأمر يحتاج لكلمة أخرى أخيرة ..

ـ .. من أجلى يا حبيبتى !

والتفتت (مريت) بوجهها إليه ، ليشهق فى فزع !

ـ ما بك يا (آنى) ؟

اتسعت عيناه ذهولاً ، وتصبب العرق مدراراً على صدغيه ، وطفق يلهث كأنه رأى وجه (ست) بنفسه ..

ـ .. هل أفزعك أنت الآخر نعيق الغراب ؟!

حدق فى وجهها مليًا محاولاً استجلاء تفاصيله فى الظلمة ، لكنه بدا طبيعيًا للغاية !

ـ (آنى) ...

هل حقًا عندما استدارت إليه ..

ـ .. ما ..

رأى عينيها خاليتين من البؤبؤ ؟!!

ـ .. بك ..

بيضاوان كقلب (أوزوريس) ؟؟!!

ـ .. يا حبيبتى ؟!

أم أنه محض توهم ؟؟!!

* * *

ـ (آهورة) .. ألم تنامى بعد ؟

نفضت الأم عن عينيها غبار النعاس السحرى معتدلة فوق سريرها الخشبى الواطئ ، وقد نهضت لتجد ابنتها ما زالت مستيقظة ، مكبة على حياكة ثوب من الكتان ، على ضوء القمر المنسكب من النافذة الدانية المفتوحة ..

ـ نعم يا أماه .. ما زال أمامى بعض العمل ..

قالتها (آهورة) دون أن تنظر شطر أمها ، التى غمغمت فى عاطفة أمومية صادقة :

ـ ستوجعك عيناك من العمل فى الظلام !

تنهدت (آهورة) ، وقالت فى إرهاق :

ـ غدًا يوم السوق الموسمى الكبير ، علىّ أن أنتهز الفرصة وأبيع عشرة أثواب على الأقل ..

نظرت الأم إلى أسفل المقعد الذى تجلس عليه ابنتها ، وميزت فى الظلام كومة من الأثواب النسائية المرتبة ، فقالت مشفقة :

ـ يكفى ما صنعت يا بنتى ..

ـ سأخلد للنوم فور انتهائى من هذا الثوب .. إنه الأخير ..

قالتها الفتاة ثم رفعت ناظريها إلى أمها متابعة :

ـ نامى أنت .. ولاتشغلى نفسك بى ..

وقبل أن تمتثل الأم أو تعترض ، حط غراب أسود على إفريز النافذة ، وأخذ ينعق بصوت هو القبح نفسه !

ـ نذير شؤم !

قالتها الأم وقد أوجس قلبها خيفة مبهمة ، فى نفس اللحظة التى انفتح فيها باب الدار الصغير بعنف ارتجت له الجدران الطينية المتداعية ، فما كان من (آهورة) إلا أن همست ، شاخصة ببصرها نحو الواقف أمامه :

ـ ها قد تحقق النذير !

ـ أما زلتما مستيقظتان ؟!

هدر بها (ثاى) ـ زوج أمها ـ فى غلظة ببنيانه الضخم المترنح كأنه جبل ينهار ، وقد انبعثت شرارات شيطانية من عينيه الحمراوين ، وانفتح فمه الغارق بالزبد كاشفًا عن صف من الأسنان القذرة ، لتفوح منه رائحة الجعة التى اعتادتا أن تشماها ..

نهضت أمها على الفور ، وهتفت تسأله فى رعب يليق بزوجة مضطهدة :

ـ هل أعد لك العشاء يا (ثاى) ؟

ـ لا أريد عشاءً ..

زمجر وهو يندفع داخلاً البيت بخطوات لا اتزان فيها ، وأكمل مستندًا بذراعه على الحائط :

ـ .. أريد ما يصلح لشراء الخمر ..

سددت (آهورة) إليه نظرة ملؤها الكراهية ، وقالت بغيظ مكتوم :

ـ ليس فى حوزتنا شىء ..

أزعجت كلماتها عقله المخمور ، فصاح بضيق :

ـ أى شىء .. ذهب ، فضة ، طعام ، ملابس .. أى شىء يصلح ..

ـ قلت لك ليس فى حوزتنا شىء .. ألا تفهم ؟

نطقت بها (آهورة) وقد اكتست نبرتها بتحد سافر ، جعل (ثاى) يترك الحائط ويهوى نحوها شاهرًا قبضته فى وجهها ، وهو يصيح :

ـ ينقصك بعض التهذيب أيتها الـ ...

أسرعت الأم تقف فى منتصف المسافة بينهما ، وأمسكت بقبضة (ثاى) فى الهواء قائلة بصوت مضطرب :

ـ دعها .. لم تكن تقصد شيئًا ..

ـ أغربى عن وجهى الآن أيتها الشمطاء !

ودفعها (ثاى) جانبًا لتتكوم المرأة بجوار السرير بلاحول ولاقوة ..

ـ أمى ..

ألقت (آهورة) بالثوب من يديها وهرعت إلى حيث سقطت أمها ، لكن (ثاى) جذبها من ذراعها فى قسوة قبل أن تبلغها ، ولواه فأطلقت صيحة ألم ، استعذبها الأخير وهو يقول فى سادية :

ـ عندما يطلب (ثاى) شيئًا ، فلا أحد يمنعه من أخذه .. هل تفهمين أيتها الغرة ؟

وعاد يلوى ذراعها ، فأطلقت صيحة متألمة أخرى كاد ينفطر لها قلب الأم ، وهتفت به فى صوت باكٍ :

ـ لا شىء لدينا .. صدقنى !

أدار وجهها نحوه فى سرعة دون أن يفلت ذراعها ، وتعلقت عيناه المحمرتان بصدرها ، وهو يقول :

ـ سآخذ هذا الجعران ..

ـ لا .. الجعران لا ..

تجاهل (ثاى) صياحها ، وأمسك بالجعران الأزرق المتدلى على صدرها بيده الحرة ، هاتفًا فى وحشية :

ـ يبدو أنه يساوى الكثير ..

ـ لا .. اتركه .. اتركه ..

.. واستعد (ثاى) لجذب الجعران بقبضته القوية ..

ـ .. خذ هذه الأثواب .. خذها كلها واترك هذا الجعران !

ولدهشتها توقف (ثاى) ناظرًا إلى كومة الأثواب ، وبدا كأنه يعقد مقارنة فى عقله ، ولدهشتها الأشد دفعها فى النهاية ناحية أمها لتتكوم بجوارها على الأرض ، وقال :

ـ صدقت يا فتاة .. هذا الجعران أثمن من أن أضيعه على بضعة كئوس من الخمر الرخيصة !

وحمل الأثواب بين ساعديه مكملاً :

ـ سآخذ هذه الأثواب .. وسيأتى الدور على هذا الجعران فيما بعد ..

ثم إنه استدار نحوهما قائلاً فى لهجة تهديد ووعيد :

ـ سأعود بعد قليل .. والويل ـ كل الويل ـ لكما إن لم أجد العشاء جاهزًا !

وضحك فى مجون متمايلاً فى سيره نحو الباب ، ورفع عقيرته يغنى أغنية من أغانى العربدة والغراب الواقف على افريز النافذة يجاوبه بمزيد من النعيق المزعج ..

ـ سحقًا لك .. سحقًا لك ..

دمدمت بها (آهورة) وجسدها يرتعش من فرط الغضب ، بينما اتكمشت الأم على نفسها وقد تضاعف رعبها عشرات المرات ..

فبالإضافة لرعبها الأبدى من (ثاى) ، متأكدة هى من أنها قد رأت عينى ابنتها ـ برغم الظلام ـ خاليتين من البؤبؤ ، بيضاوان كقلب (أوزوريس)!!

★ ★ ★

جفا النوم عينى (شيرى) فأخذت تتقلب ذات اليمين وذات

الشمال ، تتنهد حينًا وتحدث نفسها بصوت هامس حينًا ، وترنو ببصرها إلى النافذة العلوية للغرفة الضيقة التى تنام فيها بجوار جدتها متأملة فى سواد السماء المرصعة بجواهر النجوم ، تحاكيها وتناجيها فى حوار داخلى ممتد إلى الما لانهاية ..

ـ ما بك يا فتاة ؟!

اخترق سؤال الجدة المستلقية بجوارها على الحصيرة البردى الخشن أذنها ، فاعتدلت بوجهها ناحيتها هامسة كمن وجد ضالته أخيرًا :

ـ جدتى .. أما زلت مستيقظة ؟!

ـ أجل .. لكنى لا أحادث نفسى كالمجانين ..

قالتها الجدة باسمة فى حنان وهى تضم رأس حفيدتها إلى صدرها الناحل ، فغاصت (شيرى) فى أحضانها وهى تقول بلهجة طفولية :

ـ أتعلمين ماذا رأيت فجر اليوم يا جدتى ؟

ـ ماذا يا حبيبتى ؟

ـ (سبوديت) .. وتمنيت أن أصبح سيدة بيت معززة مكرمة مثل السيدة (نوب) نفسها ..

ضحكت الجدة نصف ضحكة ، ومرت بأصابعها فى شعر حفيدتها المجعد ثم قالت بنبرة كللتها الحكمة :

ـ ستنالين ما قسمته لك الأقدار يا صغيرتى ..

عادت (شيرى) ترنو بناظريها إلى النجوم عبر النافذة دون أن تفارق مكمنها بين ذراعى الجدة ، ثم قالت بنبرة آتية من دنيا الأحلام الجميلة :

ـ أتوق للحرية كما لا أتوق لأى شىء آخر .. لو كان أبى وأمى حيين ، لو لم يبتلعهما الفيضان النيلى على حين غرة ، دون حتى أن يستعدا لمواجهة الموت الغادر .. لو .. لربما كنت الآن حرة أملك مصيرى فى يدى .. بدلاً من أن يكون لعبة رخيصة فى أيدى السادات يلهون بها ويتناقلونها فيما بينهم كيفما شاءوا ..

وتنهدت فى حرارة لاهبة ثم تابعت بحسرة :

ـ كثيرًا ما أحسد (آهورة) و(مريت) على ما هما فيه من نعمة لا تقدرانها حق تقديرها ..

ـ ربما كانتا تحسدانك على نعمة لاترين نفسك تتمتعين بها ..

تجاهلت (شيرى) قول جدتها المهون عليها ، وقالت كأنها لم تسمعه من الأصل :

ـ آه لو أحب مثل (مريت) .. الحب .. إن حرية (مريت) جعلتها قادرة على أن تقابل (آنى) الآن تحت جنح الظلام ليتبادلا حوار العاشقين ، بينما كل ما منحته لى عبوديتى دور الوسيط المخلص ، الأمين على سرهما المقدس ..

انعقد حاجبا الجدة ، وسألت فى لوم :

ـ هل فعلتها مرة أخرى يا (شيرى) ؟

اكتشفت (شيرى) أن لسانها قد زل ، فلجأت إلى حيلتها المعهودة فى التظاهر بالبراءة وعدم الفهم :

ـ فعلت ماذا ؟

قالت الجدة وحدة نبرتها تتزايد :

ـ كم مرة نصحتك بأن تتجنبى إلقاء نفسك فى هذا اليم العميق ؟ ماذا لو اكتشف أحد دورك فى هذه القصة الشائكة ؟

ابتلعت (شيرى) ريقها بصوت مسموع وهى تتساءل مجددًا :

ـ أية قصة ؟

هتفت الجدة وقد استبدت بها سورة الغضب :

ـ كفاك يافتاة .. أنت لاتجهلين مدى رفض السيد (حنت)، والسيدة (نور) لأن يخرج ابنهما الوحيد عن سيطرتهما الكاملة ..

دفنت (شيرى) وجهها فى صدر الجدة ، وقالت دون أن تجرؤ حتى على مواجهتها بالعين :

ـ كنت أنفذ أوامر سيدى (آنى) فقط ..

وقبل أن تنطق الجدة برد مفحم آخر ، تعالى نعيق غراب عبر النافذة ، وقبل أن تنظر الأخيرة نحو مصدر الصوت ، انفتح باب الغرفة الصغيرة وغمرت أنحاءها أضواء المشاعل ..

ـ من ؟

هتفت الجدة وقد أغمضت عينيها كرد فعل منعكس ، بينما ميزت (شيرى) ـ التى شل الرعب حركتها ـ شبحًا من السواد تتأجج من خلفه نيران مشعلين ، يحملهما عبدان حبشيان عرفتهما بضخامة البنيان ..

ـ أنت الخادمة المدعوة (شيرى) .. أليس كذلك ؟

ـ السيد (حنت) ..

هتفت بها الجدة فى نبرات أكلها الهلع ، بينما لم تجد (شيرى) فى نفسها القدرة على التحدث ..

ـ أين (آنى) يا فتاة ؟

قالها السيد (حنت) فى جمود وهو يتقدم بخطوات ثابتة بطيئة إلى منتصف الحجرة دون أن يتبعه العبدان حاملا المشاعل ، فالتصقت (شيرى) بجدتها تلتمس من جسدها الهزيل الحماية ، وهتفت الأخيرة بلهجة من تحققت أسوأ مخاوفه بغتة :

ـ من يا سيدى ؟

صاح الرجل بعصبية :

ـ اسأل عن ولدى (آنى) أيتها الحيزبون .. قلبت المنزل رأسًا على عقب بحثًا عنه دونما جدوى ..

ـ إننا . إنها ..

لم تجد الجدة لدى نفسها القدرة على الكذب أو لى عنق الحقائق ، فتلعثمت الكلمات على أعتاب فمها ، وواصلت حفيدتها اعتصار جسدها فى حين قال (حنت) بصرامة تليق بمكانته كنبيل ذى حيثية ، يخاطب عبدًا آبقًا :

قالها السيد (حنت) فى جمود وهو يتقدم بخطوات ثابتة بطيئة إلى منتصف الحجرة دون أن يتبعه العبدان حاملا المشاعل ..

- إحدى الخادمات الأمينات قالت إن لحفيدتك يد فى اختفائه المتكرر هذه الأيام ، ووشت بأنها تحرضه على مقابلة واحدة من صديقاتها فى الخفاء ..

- كلا .. كلا .. غير صحيح ..

ارتعدت العجوز وهى تلوك الحروف بين أسنانها الآيلة للسقوط ، بينما قال (حنت) وصرامته تتحول إلى غلظة :

- دعيها تتحدث وتدافع عن نفسها .. تكلمى يا فتاة .. تكلمى ..

- جدتى ..

هتفت بها (شيرى) وقد انهمرت الدموع شلالات من عينيها ، فزجرها (حنت) هاتفًا وقد تحولت غلظته إلى قسوة :

- لن يفيدك هذا أيتها اللعينة .. ستتالين من العقاب أشده لو لم تتكلمى .. وأشار إلى عبديه الواقفين عند الباب مضيفًا :

- سأجعل هذين الرجلين يقيدانك فى الخلاء وينهالان عليك ضربًا بالسياط حتى تنفك عقدة لسانك ، ربما أمرتهما بإزهاق روحك الآن لو لم تنطقى بالحقيقة كاملة .. هل سمعت أيتها المتمردة ؟ الحقيقة كاملة ..

- واجدتاه ..

قالتها (شيرى) وهى على شفا الانهيار ثم انخرطت فى نشيج مزق نياط قلب جدتها ، لكن قلب (حنت) لم يلن ، ومد أصابعه جاذبًا شعر الفتاة بقوة وهو يصرخ فيها باتفعال :

ـ تكلمى .. أين (آنى) .. أين هو الآن ؟

رفعت (شيرى) عقيرتها بالصراخ المتألم ، جاوبه كورس من الغربان خارج النافذة ، وتمنت الجدة لو كانت تعيش كابوسًا مزعجًا ستفيق منه إن عاجلاً أو آجلاً ..

سألت نفسها إن كان ما تراه صحيحًا ، أم هى محض خيالات شيخوخة لا أكثر ..

لابد أنه الجواب الثانى ، فمن غير المعقول أبدًا أن تكون عينا (شيرى) بهذا البياض الذى يشبه قلب (أوزوريس) !

ـ لن تتكلمى ، ليكن إذن ..

وقذف (حنت) رأسها من قبضته ، ثم أشار للعبدين الواقفين بالباب مضيفًا وفرائصه ترتعش انفعالاً :

ـ سأعرف كيف أجعلك تتكلمين ..

دخل العبدان على الفور ، وعادت (شيرى) تستصرخ جدتها :

ـ انقذينى يا جدتى ..

أسقط فى يد الجدة ، وهتف (حنت) بعبديه فى لهجة أمر حازم :

ـ احملاها للخارج ، و ...

.. وردد ليل (طيبة) أصداء صرخة رعب مهول ، امتزجت بنعيق الغربان المحلقة فى سمائها ..

كأنها نهر مرفرف من السواد الوحشى ..

★ ★ ★

٣ ـ جريمة ..

ازدحمت شوارع (طيبة) على نحو لا تشهده المدينة الغراء إلا فى يوم السوق الموسمى الكبير ..

الباعة على بضائعهم ينادون ، والزبائن بينهم يجولون ويفاضلون ، وبعد جدال يشترون ويقايضون ، النسوة يعرضن منتجات بيوتهن من غذاء وملبس وأدوات زينة نسائية ، الفلاحون يبيعون غلة حقولهم من خضر وفاكهة ، الصناع المهرة يتنافسون فى جذب انتباه المارة معددين مزايا مشغولاتهم وابتكاراتهم التى تجعل الحياة أجمل وأسهل ، والفنانون يقفون فى صمت إلى جوار تحفهم الفنية التى تتحدث عن نفسها بنفسها .. وبين الجموع المتدافعة بالمناكب ، فى شارع عريض من الشوارع الطيبية الممهدة ، التى اصطفت على جانبيها سرادقات البيع والشراء ، مال شاب نحيل ذو عينين خضراوين ولحية خفيفة ، على صاحبه الأسمر المفتول العضلات ذى الشعر المجعد ، هامسًا فى نشوة طفل سعيد :

ـ أوحشتنى (طيبة) .. كم كنت أفتقد جو التقارب الإنسانى الحميم هذا !

لم يجبه صاحبه كما توقع ، وجد فى السير بخطوات واسعة ، فأغمض الشاب النحيل عينيه وفرد ذراعيه وملأ صدره بالهواء ، ثم قال فى هيام :

ـ أوحشتنى حتى نسائمها العليلة !

ارتطم ذراعه المفرود بأحد المارة ، ليسقط تمثالاً جرانيتيًا كان يحمله ، فابتسم الآخر ـ المفتول العضلات ـ بينما حدجه الرجل بنظرة من نار اضطرب لها قائلاً فى خجل :

ـ آسف .. لم أكن أقصد !

هتف الرجل فى ثورة :

ـ لقد اتسخ التمثال الذى اشتريته ، وكاد يتحطم .. ماذا أصنع بأسفك يا هذا ؟

سقط رأس الشاب بين كتفيه وتنحنح ناظرًا إلى رفيقه الذى أسرع بإخفاء ابتسامته ، وقال فى جدية :

ـ إنه لم يتحطم على ما أرى .. وقد اعتذر لك زميلى فماذا تريد أكثر ؟

كبح الرجل جماح ثورته ، وعقد فى عقله مقارنة سريعة بين

قوته وقوة الشاب الآخر البادية فى جلاء ، وعندما رجحت كفة خصمه بالفعل زفر فى ضيق ، وانحنى يلتقط تمثاله من على الأرض قائلاً فى غيظ مكظوم :

ـ لا شىء ..

ـ حاول فى المرة القادمة أن تتفادى أخطاء الآخرين ..

قالها الشاب المفتول العضلات ثم سار فى طريقه ، ومن خلفه هرول النحيل ، كأنه يلوذ بالفرار من خطر محدق ، بينما دمدم الرجل وقد اعتد ناظرًا نحوهما :

ـ يا لكما من وغدين !

ـ لو كنت وحدى لفتك بى فى مقابل هذا التمثال الرخيص ذى الذوق الفنى المتدنى !

قالها الشاب النحيل وهو يوسع من خطواته محاولاً اللحاق برفيقه ، الذى قال فى رصانة تتلاءم مع مظهره :

ـ كن أكثر حذرًا وأنت تتنفس لاحقًا !

ضحك النحيل ضحكة عالية اهتز لها قوامه ، وقال مداعبًا :

ـ هواء (طيبة) يدير الرءوس ويذهب العقول ياصاحبى !

ـ هذا الزحام يدير رأسى بالفعل ، إلى حد الغثيان !

قالها الرصين متأففًا وهو يشق طريقه بصعوبة فى بحر البشر المائج ، فمط النحيل شفتيه هامسًا لنفسه :

ـ كالمعتاد ، فى كل شىء مختلفان !

وأمسك بذراع رفيقه صائحًا فيه فجأة :

ـ (حورى) .. انتظر .. سأبتاع بعضًا من ثمار التين !

ـ ماذا ؟ (محب) .. إننا ..

هتف بها الآخر مستنكرًا ، لكنه بتر العبارة إذ اتجه (محب) بالفعل إلى أحد الباعة ، وتوقف أمام بضاعته يقلب فيها بأصابعه الطويلة ، وأمسك فى النهاية ببعض الثمار الناضجة فى راحتيه ومدهما إلى البائع قائلاً ببسمة فرح :

ـ سآخذ هذه ..

ـ عشر قطع فضية !

قالها البائع بسرعة مقدرًا الأمر تقديرًا جزافيًا ، وفجأة ..

طارت الثمار من كفى (محب) !!

بعبارة أدق ، انقض غربان أسودان على كفيه وطارا بعد أن حملا فى منقاريهما الثمار الناضجة !

ـ ما هذا ؟

سأل (محب) مبهوتًا ، ولوح البائع بقبضته فى اتجاه الغرابين الطائرين هاتفًا فى غل :

ـ سحقًا لك يا نذر الخراب !

قال (محب) وبراءة الأطفال فى عينيه :

ـ لا أظنها سوف تسمعك يا سيدى !

نظر إليه البائع قائلاً بخيبة أمل :

ـ صدقت ياطيب .. لا أدرى ماذا حل بالمدينة اليوم .. منذ أشرقت الشمس والغربان تصول فيها وتجول ، تخطف الأرزاق وتزعج الأهالى بنعيقها الكئيب ، كأننا نسكن أطلالاً مهجورة !

ـ ظاهرة غريبة بالفعل .. ربما كان موسمًا للتزاوج أو شيئًا من هذا القبيل ..

قالها (محب) مفكرًا لوهلة ، ثم مد يده إلى البائع قائلاً وقد استعاد بسمته الخالدة المرحة :

ـ خذ ، عشر قطع فضية !

نظر البائع إلى النقود مستغربًا ، وقال :

ـ لكن الغربان أخذتها يا سيدى !

ـ كانت فى يدى وقتها .. وعلى كل ، تستطيع اعتبارى مندوبًا عن نذر الخراب !

ابتسم البائع وهو يأخذ القطع قائلاً فى امتنان :

ـ الشكر لك .. لكن ، لتأخذ بعض الثمار فى المقابل ..

هتف (محب) وهو يبتعد :

ـ فقدت شهيتى .. شكرًا !

واصل البائع نداءه على بضاعته وقد ابتهج بمقابلة زبون رائع كهذا ، بينما عاد (محب) إلى (حورى) الذى ابتسم بدوره وقد تابع ما حدث من بعيد ..

ـ يبدو أنه ليس يوم سعدى يا صديقى !

ـ كفى حمقًا .. وإلا سنتأخر عن الموعد المحدد ..

قالها (حورى) فى حسم وعاد يسير إلى وجهته ، وفى إثره (محب) يحاول جاهدًا السير بحذائه ..

ـ لماذا تظنهم استدعونا هذه المرة ؟ أليس من الغريب أننا ـ حتى هذه اللحظة ـ لانعرف طبيعة الأمر ؟!

سأله (محب) بصوت خفيض ، فقطب (حورى) قائلاً فى استياء :

ـ احفظ لسانك يا (محب) ، لسنا وحدنا كما ترى !

تابع (محب) محدثًا نفسه ومتجاهلاً مقالة (حورى) :

ـ المعلم (تحوتى) نفسه لايبدو على علم بشىء هذه المرة !

ـ (محب) !!

هتف بها (حورى) فى تأنيب ، مندهشًا فى أعماقه ـ حتى التداعى ـ من رعونة هذا الفتى وطيشه !

ـ .. أشعر بأن هذه المهمة ستكون فريدة من نوعها ، ومختلفة كل الاختلاف عن المهام السابقة !

ـ (محب) !!!!

أوقف الهتاف (حورى) عن سيره ، وإذ حدق (محب) ـ الذى توقف بدوره ـ فى عينيه اللتين امتزج فيهما الاستنكار بالدهشة بالتقريع ، ابتسم قائلاً فى تهوين لم يبلغ حد الاستهانة :

ـ حسنًا ياصديقى .. حسنًا .. هون عليك !

ثم إنه حدق فى نقطة ما خلف كتفى (حورى) ، وتغيرت ملامحه إلى الاهتمام المفاجئ وهو يقول :

ـ انتظرنى لحظة ..

واندفع إلى بائعة حسناء تقف على مقربة منهما ، تبيع العطور وأدوات التجميل ، ولم يتمالك (حورى) نفسه فابتسم على الرغم منه ضاربًا كفًا بكف ، وأخذ ينعى ـ كالمعتاد ـ حظه الذى أوقعه فى زميل كهذا !

ـ سآخذ هذا العطر الخلاب ..

قالها (محب) وهو يستنشق العطر الذى تفوح رائحته من قنينة بنفسجية صغيرة ، فقالت البائعة بعذوبة :

ـ أحسنت الاختيار بالفعل ياسيدى ، هذا أجمل عطر لدى ..

ـ لايوجد هنا ما يستحق وصف (أجمل) سواك ..

ـ أنت مجامل ياسيدى ..

ـ بل هى الحقيقة كما يجب أن تكون !

ـ عشرون قطعة فضية فقط ..

نقدها (محب) القطع ، ثم ودعها غامزًا وهو يقول :

ـ يا ضياء الجنة !

واستدار عائدًا لـ (حورى) ، لكن أحد المارة اصطدم بذراعه فى عنف ، وسقطت القنينة البنفسجية على الأرض لتتحطم ويفوح عطرها الموءود مداعبًا أنوف سعداء الحظ المتواجدين حوله ..

ـ آسفة !

قالتها فتاة مكتنزة القوام يحمل وجهها ملامح بريئة تنم عن طيبة لاحدود لها ، وتحمل نبرتها حكمة واتزانًا يتجاوزان بكثير ما يدل عليه مظهرها من عمر ، وترتدى حول عنقها قلادة تنتهى بجعران أزرق يرقد فى أمان على صدرها ..

ـ لا عليك ، كنت أعلم أنه ليس يوم سعدى !

قالها (محب) محدقًا فى شظايا القنينة المهشمة على الأرض ، وقد لاح فى ثنايا وجهه الباسم دومًا بعض الحزن ..

ـ خذ ..

قالتها الفتاة وقد اختنق صوتها ببكاء مكتوم ، مادة يديها بثوب بسيط من الكتان المطرز ، كانت قد قضت الليل كله تصنعه ، لتبيعه اليوم فى السوق الموسمى الكبير ..

ـ ما هذا ؟

سألها (محب) هارشًا لحيته القصيرة فى حيرة لم يتصنعها ، فأجابته بمرارة :

ـ خذ هذا الثوب عوضًا عن بضاعتك المحطمة ..

أمسك (محب) بالثوب وتمعن فيه قائلاً فى إعجاب :

ـ ثوب بديع .. لا توجد مشكلة ، سأشتريه منك !

بدهشة قالت الفتاة :

ـ كلا .. كلا .. إننى .. لقد حطمت .. أعنى ..

قال مستعيدًا بسمته وقد رق قلبه المرهف لحالها :

ـ إن كنت تقصدين العطر فلايهم .. كان مصيره التطاير فى الهواء فى جميع الأحوال !

ثم مد يده لها بقطع كثيرة من الفضة قائلاً :

ـ هل تكفى سبعين قطعة من الفضة ثمنًا له ؟

اتسعت عيناها وهى تسأله ذاهلة :

ـ كم ؟!

ـ للأسف هى كل ما أملك حاليًا .. أعلم أنه يستحق أكثر ولكن .....

ـ كلا .. كلا .. هذا مناسب للغاية !

قاطعته ماسحة عبرة فرت من مقلتها دون قصد ، إنها لم تكن لتحلم بنصف هذا الثمن ، أو حتى ربعه !

ـ ابتسمى يا فتاة .. لو كنت أتقلد جعرانًا كالذى على صدرك لما بكيت أبدًا طوال عمرى !

وجدت الفتاة نفسها تبتسم ، وهى تتناول منه القطع الفضية ، فواصل مداعبتها قائلاً :

ـ لو تعلمين كم أنتِ جميلة حين تبتسمين ، لابتسمت إلى الأبد !

ـ الشكر الجزيل لك يا سيدى ..

ـ أستميحك عذرًا فى الذهاب ، زميلى الواقف هناك سيقتلنى إن لم أعد له على الفور !

قالها (محب) مشيرًا إلى (حورى) الذى وقف يدق الأرض بقدميه ويرمقه من بعيد بنظرات قاسية ، ثم مضى نحوه دون إبطاء واضعًا الثوب تحت إبطه .. ولما بلغه تبادلا القليل من الكلمات ثم مضيا معًا بعيدًا فى سرعة ، حتى غابا عن أنظارها تمامًا !

ـ حقًا .. مازال فى هذه العالم البغيض بعض الأناس الرحماء !

غمغمت بها لنفسها ، ثم مضت عائدة إلى دارها القريبة ، لكنها قبل أن تعبر بابها سمعت صوتًا تعرفه ؛ يناديها همسًا ..

ـ (آهورة) .. (آهورة) !

التفتت إلى مصدر الصوت خلف حائط المنزل القريب ، وهتفت باستغراب عندما رأت صاحبة الصوت :

ـ (مريت) .. ما الأمر ؟!

ـ تعالى هنا .. بسرعة حتى لا يرانا أحد !

خفت (آهورة) إليها المسير وعقلها يحاول استيعاب الموقف ، ويطرح ألوف الأسئلة الحائرة ..

ـ ما الأمر ؟! ولماذا تخشين أن يرانا أحد ؟!

أجابت (مريت) سؤالها محاولة السيطرة على انفعالاتها :

ـ هل سمعت بما حدث أمس ؟

قالت (آهورة) على الفور :

ـ كلا ..

وقالت مستجمعة بعض أفكارها :

ـ كل ما صار بالأمس أن (ثاى) تهجم علىَ مجددًا أنا وأمى و ...

ـ كلا .. كلا .. أعنى مصرع النبيل (حنت) !

ـ من ؟

ـ النبيل (حنت) .. والد (آنى) ..

ـ الذى تعمل (شيرى) خادمة فى بيته ؟

ـ أجل ..

ـ قضى نحبه ؟

ـ أجل ..

ـ إذن سيرثه (آنى) ويتزوجك وتصبحين سيدة الدار !

ـ ليت الأمر بهذه البساطة !

ـ ماذا إذن ؟

ـ (شيرى) !

ـ ماذا عنها ؟!

ـ يقولون إنها اختفت من المنزل تمامًا ليلة أمس !

وجمت (آهورة) للحظة وقد عجز إدراكها عن تقدير الموقف ، ثم سألت وقد غزت الفئران صدرها :

ـ تعنين أن ؟!

ـ الملابسات غامضة ، والأمور كلها لم تتضح بعد .. لكن الشائعات تملأ (طيبة) ..

قالتها (مريت) فى ألم بين ، فسألتها (آهورة) وقد بدأت الصورة الضبابية تتضح أمام عينيها :

ـ أى شائعات ؟

صمتت (مريت) مليًا كأنها عجزت عن إيجاد ما يقال ، لكنها حسمت أمرها قائلة آخر الأمر فى تردد بين :

ـ يقولون إن .. إن (شيرى) .. هى التى .. هى التى قتلته .. ولاذت بالفرار ..

وعاد الصمت يلفهما من جديد ، لم يقطعه إلا نعيق مزعج لغراب آخر حط فوق سطح المنزل ..

كانت الصورة قد اتضحت أمام عينى (آهورة) تمامًا .. اتضحت إلى حد الهلع ..

* * *

ـ تفضلا بالدخول ، السيد (تاوى) نائب الوزير لن يتأخر ..

أشار شاب يرتدى زى شرطة (طيبة) المميز لـ (حورى) و(محب) بالدخول إلى الغرفة الرئيسية فى مقر وزارة الجنوب ، ثم حياهما بإيماءة سريعة من رأسه واختفى من أمامهما كالبرق ..

ـ يا له من استقبال مهين لاثنين من جنود (لوتس) !

قالها (محب) فى جد أراد به الهزل ، فقال (حورى) بلهجة عملية دالفًا عبر باب الغرفة :

ـ لعلك توقعت استقبالاً ملكيًا بالورود والرياحين !

ـ ولم لا ؟!

قالها (محب) داخلاً خلفه إلى الغرفة الواسعة المؤثثة بما يبهج العين وتقر به النفس ، وقبل أن يعيا كل تفاصيلها ارتفع صوت أنثوى ذو رنة مألوفة يقول من ركن بعيد :

ـ سبقتكما بالحضور هذه المرة !

ـ (نفرو) ..

تهللت أسارير (محب) وهو يهتف بها ، وتجلت الغبطة فى ملامح وجهه الهندسية ، بينما قال (حورى) هازًا منكبيه العريضين وقد سلم بالأمر الواقع إذ سيعمل ـ شاء أو أبى ـ مع اثنين يرفض التعامل معهما :

ـ (محب) هو السبب كالعادة !

حدق (محب) فى ملامح وجهها الخمرى المليح ، وعينيها الواسعتين الساحرتين ، وشعرها الليلى الناعم طويلاً ، قبل أن يتذكر شيئًا بغتة ..

ـ ما رأيك فى هذا الثوب ؟!

سألها فاردًا الثوب الكتانى المطرز أمام ناظريها .. تعجب أول الأمر ، لكنها نظرت فيه متفحصة قبل أن تهز رأسها قائلة فى النهاية :

ـ لست أحب الأثواب الكتانية ، أرتاح للحرير الأملس أكثر !

ـ حقًا ؟

.. وتابع (محب) بنفس خيبة الأمل وهو يلملم أطرافه :

ـ أستطيع أن أرى هذا قطعًا !

ـ ما رأيك فى هذا الثوب ؟!
سألها فاردًا الثوب الكتانى المطرز أمام ناظريها ..

شعرت (نفرو) بمدى سخافتها ، واختلست نظرة خاطفة إلى (حورى) الواقف عاقدًا ساعديه فى غير اهتمام ، ثم قالت معاودة النظر إلى (محب) :

ـ هذا لا يمنع أنه جميل بالفعل !

قال (محب) فى سخرية مريرة وقد فطن إلى محاولتها البائسة :

ـ كنت سأمنحه لشخص أكن له مشاعر خاصة فى قلبى ، لكنى أظنه يصلح أكثر كرداء لفزّاعة ؛ تطرد الغربان من حول معبد (لوتس) !

تدخل (حورى) قائلاً فى لهجة محايدة :

ـ لقد كلفك كل ما تملك من فضة !

نظر (محب) إلى الثوب بين قبضتيه ، ثم هز كتفيه قائلاً فى لامبالاة مصطنعة :

ـ ليكن .. حتى تعرف الغربان ما أكنه لها من مشاعر خاصة !

ـ من يتحدث عن الغربان ؟

قالها (تاوى) داخلاً الغرفة فى خطوات حازمة ، وتلاقت عنده أنظار ثلاثتهم ..

ـ القائد (تاوى) ..

هتف (محب) مستعيدًا مرحه الفطرى الأبدى ، فقال (تاوى) وقد لاح فوق شفتيه شبح ابتسامة باهتة :

ـ عذرًا لتأخرى ، كنت أنهى عددًا من الأعمال حتى أتفرغ لكم تمامًا ..

قال (حورى) رامقًا زميله الفنان بنظرة جانبية :

ـ نحن أيضًا تأخرنا ، حضرنا الآن فقط والفضل لـ(محب) !

رفع (محب) حاجبيه قائلاً :

ـ لم ينجم عن تأخيرنا أية أضرار كما أرى !

رفع (حورى) سبابته فى وجهه قائلاً فى تأنيب :

ـ الالتزام بالحضور فى الموعد مسألة مبدأ ..

ـ هذا صحيح ..

أيدته (نفرو) متحاشية النظر إلى وجهه مباشرة ، فهتف (محب) فى عناد :

ـ أصبح اثنان ضدى كما أرى ..

صفق (تاوى) بيديه وهو يقول جالسًا فوق مقعد مرتفع بعض الشىء :

ـ دعونا من هذا الهذر .. أمامنا مهمة على قدر رهيب من الخطورة .. كلا .. إنها الخطر بذاته لو تحرينا الدقة ، فالفشل فيها لايعنى إلا نهاية (طيبة) ، بل نهاية الإمبراطورية المصرية بأسرها ؛ من أقصاها إلى أقصاها ..

استحوذ حديثه المفعم بالجدية على انتباههم ، فسددوا نحوه أبصارهم اللهفى وقال (حورى) مضيقًا حدقتيه :

ـ هات ما عندك أيها القائد .. نحن لها !

راق قوله لـ (تاوى) فأنشأ يقول :

ـ ليلة أمس لقى نبيل طيبى مصرعه ، فى نفس الوقت الذى اختفت فيه خادمة نوبية من بيته ، يشتبه فى كونها القاتلة !

تنحنح (محب) ثم قال فى حرج :

ـ عذرًا ياسيِّدى ؛ سمعتك تتحدث عن خطر يتعلق بكيان الإمبراطورية المصرية من أقصاها إلى أقصاها !

هز (تاوى) رأسه وقال موافقًا :

هذا صحيح يا فتى ، إننى لم أبدأ القصة من بدايتها ، وإنما من النهاية !

ثم استطرد :

ـ البداية كانت هناك ، فى تلك الأرض البعيدة التى تحيط بها المياه من جميع الجهات ، أتعلمون ؟؟ ستتحدث الأجيال الآتية بغموض شديد عن هذه الأرض ، التى شهدت مهد حضارة لم يعرفها البشر من قبل ولن يعرفوا مثلها من بعد ، تلك الحضارة التى بلغت أوج التقدم وذرى الازدهار ، وبلغ ساكنوها قمم المعرفة العليا ؛ مما سيظل الناس يجهلونه أبد الآبدين .. وربما يتحدثون أيضًا عن اختفائها المفاجئ من على وجه التاريخ ، متسائلين عن ملابسات هذا الاختفاء الغريب ، متى حدث ؟ كيف حدث ؟ لماذا حدث ؟ ربما يعرفون ـ أو يستنتجون ـ أن كارثة ما قد حلت ، لكنى أشك فى أنهم سيصلون إلى روح الحقيقة .. إن آخر كهنة الظلام قد تلاشى أمام عينى ليلة أمس !

قطبت (نفرو) مرددة الكلمة فى استغراب :

ـ كهنة الظلام ؟!

ـ لم يسمع أى منكم شيئًا كهذا من قبل ، أعرف .. أنا شخصيًا لم أسمعه قبل الأمس ..

.. وتنهد (تاوى) ثم تابع :

ـ كما أخبرتكم ، بلغ ساكنو هذه الأرض المائية البعيدة ما يبلغه سواهم ـ حتى نحن ـ من تقدم ، صنعوا من بلادهم جنة أرضية تزخر بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، شوارع من رخام براق ، نافورات مياهها ملونة تتوسط الميادين الفسيحة ، منازل بيضاء شاهقة الارتفاع وقصور من الأحجار الكريمة .. عاش ساكنوها فى سلام ورخاء ، يحبون الطبيعة وتحبهم الطبيعة .. كانت لهم القدرة العجيبة على الطيران فى الهواء ، والغوص فى أعماق الماء المالح ، بمعدات غريبة ابتكروها ، وكانوا يبهرون مبعوثينا إليهم دومًا بكل جديد وبديع ونفيس ، كأنهم ليسوا من أهل الأرض .. وعن طريق التبادل العلمى والتجارى أفادونا وأفدناهم ، أثرنا فيهم وتأثرنا بهم .. واستمر الحال على هذا المنوال حتى كشفت النفس البشرية عن خباياها الدنيئة .. وهكذا ستظل النفس دومًا ، أمارة بالسوء ، كلما أحرزت خطوة للأمام على درب التفوق الإنسانى ، تجد نفسها مقيدة بأساور معدنية إلى غياهب التخلف والدونية ، ولا تعدم من يجذبها إلى قاع الخطيئة السحيق ، وهوة الشر المريع .. لقد أسفر كهنة الظلام عن وجوههم السوداء !

ـ من يكونون ؟!

سأل (حورى) ، وصمت (تاوى) هنيهة قبل أن يتنهد ويجيب :

ـ إنهم حفنة من العلماء ممن جادت عليهم السماء بعلم وفير ، فنذروا أنفسهم لمعتقدات شيطانية اعتنقوها ، لتصبح دستورًا لهم ، وغاية يضعونها نصب أعينهم الضريرة .. لقد آمنوا بأنهم رسل الفناء ،ومبعوثى الهلاك على الأرض ، وسخَروا معرفتهم الغزيرة لتحقيق غاياتهم المريضة هذه .. كانوا قد توصلوا لأدق أسرار صهر المعادن وإعادة تشكيلها ، ومزجوا معرفتهم هذه بإتقان السحر والتحالف مع قوى الشر الكونية ، وكانت ثمرة علمهم المقيت أن صنعوا جعارين تملك فى داخلها قوى سحرية جبارة قادرة على إفناء العالم بأسره لو أرادوا !

بلغ اهتمام (حورى) ذروته ، واتسعت عينا (نفرو) فى حين هتف (محب) لاهثًا من فرط الانفعال :

ـ يا للقوة !

ـ لم نكن على علم بهذا وقت أن كانت علاقتنا بساكنى الأرض البعيدة على خير ما يرام ، ربما كانوا هم أنفسهم

يجهلونه ، وكان أن تلقت الملكة الأم (حتشبسوت) هدية من كهنة الظلام يومًا ، جعرانًا ذهبيًا ضخمًا يزن الكثير ، قدموه باسم شعب الأرض البعيدة فتقبلته الملكة بصدر رحب وأودعته قاعة خاصة ، فى معبدها بالبر الغربى ، حتى حدثت الكارثة التى زلزلت كيان الأرض البعيدة .. فجأة .. وردت الأنباء أن الأرض قد زالت .. توحشت المياه من حولها وعلت الأمواج وابتلع المحيط كل ما عليها ومن عليها .. أتى الماء على كل ما أبهر مبعوثينا من منشآت ومبتكرات ، غرق الناس فى القاع العميق ، وفر كهنة الظلام على متن قارب كبير قبل وقوع الكارثة بعدة أيام ..

أقلهم القارب إلى شاطئ النجاة ، هبطوا وهاموا على وجوههم ينشرون بين الناس أنهم أغرقوا الأرض بقوة جعارينهم المدمرة ، قابلهم الناس باحتقار يليق بهم ، طردوهم من ديارهم ومدنهم وقراهم ، ولقوا صنوف المهانة المختلفة على أيدى كل الشعوب المحبة للحياة ، لكن .. لم يفت هذا فى عضدهم ، كانت لهم بغية محددة ، كانوا يقصدوننا نحن !

ساروا طويلاً فى طريقهم نحونا ، وجاءنا عدد من الرسل من البلاد الصديقة يحذروننا : الأوغاد يريدون لنا أن نلاقى عين المصير الذى لاقته أرضهم التعسة ، يسعون لأن تلتهمنا المياه كما حدث لهم ، وهكذا تتم رسالتهم الملعونة !

كانوا ينشرون هذه المقولة فى كل أرض يحلون بها لثقتهم الشديدة بقدراتهم الخارقة ، بلغت الأنباء القصر الملكى ولم يركن الأمير (تحتمس) إلى الصمت .. وضع الأمر فى طى الكتمان حتى لا يصبح مثار ذعر وبلبلة بين العامة ، وأرسل فرقًا عديدة من جنود الجيش خلف كهنة الموت هؤلاء ، عثر الجنود عليهم فى الصحراء بملابسهم الزرقاء السندسية المميزة ، تكلل الغربان مسيرتهم المشئومة .. وكانت المذبحة .. قتلوهم شر قتلة وخلصوا العالم من موبقاتهم ، فتشوهم وعادوا بكل ما فى حوزتهم ، وعلم كهنتنا من ترجمة رموز البرديات التى كانت فى حوزتهم ما خططوا له بالتفصيل : السر يكمن فى الجعران الذهبى الذى أهدونا إياه ، فى داخله قوة سحرية مهولة ستجعل النهر المسالم يستأسد ويأتى على كل شىء ، لكن هذه القوة ستظل خاملة إلى أن تنشط بفعل جعارين صغيرة ثلاثة .. يجب أن تصل هذه الجعارين إلى ثلاث من عذراوات الوادى ، ستحرض الجعارين الفتيات على قتل ثلاثة رجال فى ثلاثة أيام متعاقبة ، وعندما تسيل دماء الرجل الأخير .. ستقع الكارثة !

ـ رباه .. أهذا ممكن ؟

ندت العبارة عن (نفرو) التى انفغر فاها ، وأكمل (تاوى) دون أن يجيبها :

ـ بحثنا عن هذه الجعارين فى ملابس كهنة الظلام القتلى

عبثًا ، لم نجد لها أدنى أثر ، واتضحت الحقيقة فيما بعد ، كان واحد من الكهنة قد تأخر عن اللحاق بهم عندما قابلهم جنودنا فى الصحراء ، والحظ العاثر جعله حامل هذه الجعارين فى جعبته .. وعندما لحق بهم كاهن الظلام الأخير وشاهد جثثهم التى أضحت مأدبة تتغذى عليها الجوارح ، قرر أن يتم المهمة وحده ، بعثنا خلفه الكثير من رجالنا لكنه كان شديد الحذر ، سلك مسارات متعرجة فى دهاليز الصحراء وعبر ثنايا الجبال حتى وصل إلى الوادى ، وأهدى جعارينه بالفعل إلى ثلاث فتيات .. صحيح أننا استطعنا القبض عليه قبل هروبه بالأمس ، وسلمناه للأمير (تحتمس) ، لكنه تلاشى فى الضوء أمام ناظرى فى حديقة القصر ، وملأت الغربان لحظتها سماء المدينة !

ـ لهذا إذن تنتشر الغربان كالوباء فى كل مكان !

قالها (محبِ) هازًا رأسه فى تذاكٍ ، بينما هرش (حورى) فى رأسه قائلاً :

ـ ومقتل النبيل الطيبى كان أول الغيث ..

ـ تمامًا ..

قالها (تاوى) مؤيدًا ثم أكمل :

ـ النبيل (حنت) لقى مصرعه بوسيلة مازالت مجهولة ،

لا أثر لدماء أو لعنف أو لتسمم ، كأنها ميتة طبيعية ، لكن عبدين من عبيده يصران على أن (شيرى) ، وهى خادمة صغيرة لا حول لها ولا استطاعة ، قد قتلته بالسحر ، ثم تلاشت فى الضوء !

ـ يبدو الأمر مألوفًا !

ـ لم أعاين بيت النبيل بعد ، لكن رجال الشرطة قاموا بنقل جثته إلى المعبد الكبير على الفور ، ولم يجدوا فى موقع الحادث ـ وهو غرفة الخادمة وجدتها بالمناسبة ـ أى دلائل سوى .. هذا الجعران !

رفع فى قبضته جعرانًا من الزبرجد الأصفر ، التهمه (محب) بنظراته المفترسة ، بينما قلبه (تاوى) بين راحتيه وهو يقول :

ـ إنه أحد الجعارين الثلاثة التى نبحث عنها ، تقول البرديات إن لها ثلاثة ألوان ، الأصفر ، والأحمر ، والأ ...

أسرع (محب) يقاطعه مبهوتًا :

ـ والأزرق !

ـ استنتاج جيد !

قالها (تاوى) بغير اكتراث ، لكن (محب) هتف بنفس البهوت :

ـ ليس استنتاجًا .. لقد رأيت الجعران الأزرق ، إنه توأم هذا الذى تمسكه بيدك ، كان مستكينًا فوق صدر فتاة فى السوق .. هى التى اشتريت منها هذا الثوب !

ران الصمت ، وانعقدت الحواجب فوق العيون المحدقة بـ (محب) كأنها تريد أن تستشف مدى صدق حديثه ، ثم سأله (تاوى) محاولاً كبح جماح الشك فى أعماقه :

ـ أواثق مما تقول ؟

ـ لا تسأل من يملك عين فنان كعينى !

ـ صدفة غريبة ..

قالتها (نفرو) مأخوذة ، فالتفت (محب) إليها صائحًا ، كمن يدفع عن نفسه تهمة لم يوجهها إليه أحد :

ـ لكنها حدثت !

قال (حورى) بعد لحظة من التفكير :

ـ لن يفيد هذا بشىء ، لقد ذابت فى الزحام دون شك ..

فرقع (محب) إصبعيه الإبهام والوسطى هاتفًا وقد أشرق وجهه :

ـ أستطيع أن أرسم صورة دقيقة لها ..

ـ جيد ، قد يساعدنا هذا ..

ثم أشار (تاوى) لطاولة قريبة متمتمًا :

ـ هاك قراطيس البردى والأقلام ..

ـ لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة !

قالها (محب) وقد برقت عيناه بالحماسة ، ونهض (تاوى) من جلسته قائلاً بلهجة وشت بالخطر الوشيك :

ـ سوف نبدأ التحرك من الآن فى مسار محدد ، أنا و(محب) سنذهب لفحص موقع الجريمة واستجواب ذوى النبيل (حنت) وجدة الخادمة الهاربة ، بينما ستذهب (نفرو) ـ بصفتها الطبية ـ ومعها (حورى) إلى المعبد الكبير لفحص جثة القتيل .. وسنلتقى هنا قبل الغروب ..

وزفر ثم قال وقد امتطى الخوف لهجته :

ـ بقيت جريمتان .. إحداهما ستقع الليلة ، أتعشم أن يسفر عملنا عن شىء يساعدنا على منعها ، لأنها إذا وقعت .. فلن يبقى أمامنا سوى .. فرصة واحدة أخيرة ، لمنع الجعران الذهبى من التوحش .. وإلا ، فسنلقى المصير نفسه الذى لقيته الأرض البعيدة الغارقة !

★ ★ ★

٤ ـ استجواب ..

جرْح الغروب الدامى مازال معلقًا فى الأفق البعيد ..

هبط الأمير (تحتمس) من هودجه الملكى الفخيم ، وتوقف لحظات بين حرسه والعبيد ، يرمق معبد الملكة الأم (حتشبسوت)(*) فى أحضان الجبل الغربى ..

نظراته فاضت بألوان من المشاعر المتباينة ، أسرع بدفنها فى أعماق وجدانه ..

ليس هذا وقت مناسب لترف الذكريات ..

عليه الآن أن يتدارك الخطر قبل وقوعه ..

(طيبة) ومجدها ، وبقاء علم الإمبراطورية مرفرفًا فى أعالى السماء .. فوق كل شىء ، وفوق أى شىء !

(★) معبد الدير البحرى : هو المعبد الجنائزى للملكة (حتشبسوت) ، وضع تصميمه مهندسها المقرب (سنموت) ونحت جزء منه فى الجبل ، تزين جدرانه مناظر مولد (حتشبسوت) المقدس وحملتها البحرية إلى بلاد (بونت) ، تؤدى الشرفة العليا منه إلى القاعة الرئيسية ويتفرع من هناك إلى عدة مقاصير أخرى ، وقد وضع (سنموت) فى بعض المقاصير صورًا لنفسه خلف أبواب الفتحات الغائرة فى الحوائط ..

أسرع يدب بخطواته التى صقلتها حياة العسكرية نحو المعبد ، واستقبله عند البوابة الكبيرة رهط من الكهنة ، صلع الرءوس مكحولو الأعين يرتدون أزياءهم الموشاة بالقصب ..

انحنوا لمقدمه فى إكبار ، ولما اعتدلوا جال ببصره فيما بينهم ، ثم سأل فى صرامة تناسب مكانته كشريك للملكة فى العرش :

ـ أين كاهنكم الأكبر ؟

أجاب أحدهم بنبرات مرتعشة :

ـ ينتظر مولاى فى القاعة الشرقية الموصدة !

اخترق جمعهم فتفرقوا على الجانبين يوسعون له الطريق ، وسددوا أبصارهم نحوه حتى غاب مع مرافقيه خلف البوابة الكبيرة ..

وفى الداخل ، كان الأمير يعرف طريقه جيدًا نحو القاعة المذكورة ..

ـ من هذا ؟!

مال أحد النحاتين المهرة ، العاملين على زخرفة الجدران بالنقوش الهيروغليفية ، هامسًا بها لزميله الذى يكب على

تلوين ما ينقشه ، مشيرًا نحو الأمير الذى تجاوزهم فى سرعة ، وأضاف :

ـ يبدو من أصحاب الحظوة !

التفت زميله إليه هاتفًا فى ذهول وقد اتسعت عيناه :

ـ ألا تعرفه ؟؟ إنه الأمير (تحتمس) شخصيًا !

سأل النحات مقطبًا :

ـ وكيف عرفت ؟

ـ رأيته فى احتفال الملكة بعيد تتويجها الثلاثينى !

ـ عجبًا ..

همس بها النحات لنفسه ، وتابع مغمغمًا :

ـ خلته أكبر من ذلك قليلاً !

ـ توقفوا هنا ..

هتف بها الأمير (تحتمس) لأتباعه فى صرامة آمرة ، وقد بلغوا باب القاعة ؛ المغطى بستار من القطيفة الأرجوانية السميكة ، فامتثلوا لأمره طائعين ، بينما استدار هو نحو الباب ، وتنفس بعمق قبل أن يرفع الستار .. يتجاوزه .. ويختفى خلفه ..

القاعة الشرقية الموصدة غارقة فى ضوء يغشى الأبصار ..

ـ مولاى الأمير .. حضرت فى الوقت المناسب ..

صوت الكاهن الأكبر ، يسمعه جيدًا مع اعتياد عينيه على الضوء ..

القاعة واسعة مرتفعة الجدران ، تحتلها ثلاثة أعمدة أسطوانية سميكة ممتلئة بالطلسمات ، تصنع مثلثًا وهميًا قاعدته عند البوابة ، ورأسه عند طرفها الآخر ، وفى المنتصف منصة حجرية منخفضة يبرق فوقها جسم يعرفه ..

جسم يشبه جعرانًا ..

ذهبيًا ..

ـ لقد بدأت خطتهم اللعينة تؤتى أكلها !

دنا منه الكاهن الأكبر تاركًا عددًا من الكهنة المتحلقين حول المنصة ، ممسكًا فى يديه بلفائف مطوية من البردى ، وعلى وجهه أمارات جزع شديد ..

ـ .. انظر إلى الجعران الذهبى !

ولم يكن الأمير (تحتمس) فى حاجة لتعليقه ليدرك الأمر ، وليقدر حجم الخطر ..

لاحظ منذ دخل أن الجعران يتوهج بشدة ، وأن حزمة من الضوء الأبيض الباهر تمتد منه إلى العمود الحجرى فى الجهة اليمنى ، هى التى أغشت بصره فى البداية !

ـ أرى ما تقصد !

فرد الكاهن أمامه لفافة بردى ، وابتلع ريقه الجاف ، ثم قال منفعلاً :

ـ هذا يفسر الرسم الذى حرنا فى إيجاد معناه ، انظر يامولاى ، الجعران الذهبى فى المنتصف وثلاثة خطوط تنبع من جناحيه ورأسه ..

وأشار لحزمة الضوء الصافى متابعًا :

ـ انظر .. الضوء الذى انبعث من العمود فجأة ليلة أمس بعد حادث القتل الأول يعنى هذا الخط ، أى أن الخط الثانى يعنى حزمة أخرى من الضوء ستنبعث من هذا العمود على اليسار بعد القتل الثانى ، وعندما يتم ثالوث القتل ينبعث الضوء الأخير من العمود الرأسى ، ويكتسب الجعران الذهبى قوته السحرية المهولة ، وتقع الكارثة المحققة ..

استوعب الأمير (تحتمس) ما يعنيه الأمر بعد لحظات ، وفكر لعدة لحظات أخرى قبل أن يقول :

ـ ومم ينبعث هذا الضوء ؟ هل حلت الأرواح الشريرة بالأعمدة أم ماذا ؟

ابتلع الكاهن ريقه مجددًا ، ثم قال فى تردد :

ـ كلا .. كلا يا مولاى .. أنهم كهنة الظلام ، وبراعتهم المأفونة التى لا حدود لها !

وأسرع مفسرًا ما قاله :

ـ لعلك تذكر يا مولاى أنهم عندما أهدونا الجعران ، أصروا على أن يصحبوه حتى مثواه هنا ، ولما نقلنا الجعران إلى هذه القاعة طلبوا الانفراد به يومًا كما تقضى أعرافهم الغريبة ، لم نكن نعرف أنهم يضمرون الشر فتركناه ، وبفحص الجدران أمس اتضح أنه قادم بزراعة ثلاث كريستالات فى الأعمدة ـ بطريقة جهلها ـ هى التى تشع هذا الضوء !

تجلت الحيرة فى عينى الأمير ، وأجاب الكاهن عن أسئلته قبل أن يطرحها :

ـ إننا نجهل كل شىء عن الرابطة بين الجعارين الصغيرة ، والجعران الذهبى ، وهذه الكريستالات .. نجهل كيف تجعل الجعارين الصغيرة الفتيات يرتكبن القتل ، وكيف يجعل هذا الكريستالات تشع ضوءًا ، وكيف سيجعل كل هذا المزيج العجيب من العلم والسحر والكهانة ؛ الجعران الذهبى ينشط ، والمياه الساكنة تفيض لنغرق فى لججها العارمة ؟!

عقد الأمير (تحتمس) ساعديه أمام صدره ، وعبس قائلاً :

ـ هؤلاء الأوغاد بارعون حقًا !

والتفت إلى الكاهن سائلاً :

ـ أما من سبيل لاستخراج هذه الكريستالات ؟!

هز الكاهن رأسه نفيًا بأسف :

ـ كلا يا مولاى .. لقد حاولنا دراسة الأمر وتجريبه هذا النهار فصادفنا الفشل الذريع .. صحيح أنها مادة جامدة لها مكان محدد داخل العمود ، لكن بمجرد أن يلمسها أصبع أى كاهن من الخارج ؛ تتحول بوسيلة ما إلى مادة رخوة ذكية وتفر كأنها تعرف طريقها جيدًا بين ثنايا الحجر المصمت وفراغاته الداخلية ، وعندما تترك وشأنها تستعيد مكانها ، وجمودها مرة أخرى كأن شيئًا لم يكن !!

غالب (تحتمس) انبهاره وسأل :

ـ ماذا إذن عن التخلص من الجعران الذهبى ؟ دفنه فى الصحراء البعيدة مثلاً أو ...

قاطعه الكاهن الذى لم يفطن إلى أنه يقاطع الأمير (تحتمس) شخصيًا :

ـ هذا أيضًا مستحيل يا مولاى .. حاولنا مرارًا أن نختبره بعيدًا عن المنصة الحجرية ، لكنه مثبت فى سطحها عن طريق إحدى معجزاتهم العلمية التى لاقبل لنا بها ، وبعد سريان الضوء فى جسمه الذهبى اللامع ، أصبح ساخنًا إلى درجة الاحتراق .. لن يستطيع أحد حمله على هذا الحال أبدًا !

دب الخوف المبهم فى صدر الأمير ، ممتزجًا بيأس لحظى ..

ترى .. هل يستطيع جنود (لوتس) الذين لم يخذلوه من قبل أن يمنعوا هذه الكارثة التى قد تمحق البلاد كلها ؟

هل يستطيعون التغلب على عقول جبارة سوداء كعقول كهنة الظلام الذين يحترقون الآن فى الجحيم ؟

هل يفعلونها ثانية وينجحون ، وينتصر (حورس) على (ست) كما تدعى الأسطورة ؟

هل ....

قطعت أفكاره رغبة عنيفة راودته فجأة لإلقاء نظرة من قرب على هذا الجعران ..

سار خطوات وئيدة نحو المنصة الحجرية ، وخلفه الكاهن الذى تغلب على تردده أخيرًا ، وقال كأنه ينطق حكمًا بإعدام نفسه :

ـ إحم .. هناك أمر واحد يا مولاى ورد ذكره فى إحدى البرديات .. ربما كان الوحيد الذى من شأنه إبطال مفعول سحرهم الشيطانى كما يدعون !

عقد (تحتمس) حاجبيه قائلاً وقد بلغ المنصة :

ـ ما هو ؟!

وسع له الكهنة مكانًا فوقف يرمق الجعران المشع بعينين دائرتين ..

ـ يحسن أن أقرأ النص الأصلى يا مولاى !

قرص من الشمس ، كرة من النار المشتعلة ، جناحان مفرودان كأنهما يستنفران النجوم البعيدة ، أطراف دقيقة كأنها سنابل من القمح لم تنضج ، رأس مدبب نحو العمود الرأسى شره

توقف الكاهن برهة ، ثم واصل القراءة بينما شعر (تحتمس) بالخوف المبهم يتعاظم فى داخله ..

للدمار ، وضوء غامر يكسو الذهب البراق .. هل أراد كهنة الظلام أن يمزجوا الإبداع .. بالخراب ؟ أن يجدوا جسرًا خفيًا يصل ما بين البدايات .. والنهاية ؟!

ـ « الجعران الذهبى لايموت .. »

قرأها الكاهن من لفافة البردى ..

ـ « .. لايعرف سيد الأفول المطلق معنى أن يأفل .. لكن .. تبقى الدماء غسولاً ، وروحًا باقية تضايق السيد المدلل على عرشه المكين .. »

توقف الكاهن برهة ، ثم واصل القراءة بينما شعر (تحتمس) بالخوف المبهم يتعاظم فى داخله ..

« .. الدماء .. الدماء .. الدماء .. الحمرة تفنى البياض .. ليسل دم من سلالة ملوك (طيبة) على الجعران الذهبى ، وعندما تصعد روحه .. عندها فقط .. تذوى قوته .. وتتلاشى فى محاق الظلمة السرمدى البعيد .. أطلال .. أطلال .. أطلال ! »

رفع الكاهن عينيه إلى الأمير ، ورأى سحنته مكللة بالشحوب ..

★ ★ ★

فى غرفة التحنيط بالمعبد الكبير ، والذى أخلاه الكهنة بناءً على أوامر وزارية عليا ، انهمكت (نفرو) فى فحص جثة النبيل (حنت) وتحميصها شبرًا شبرًا ..

راحت أصابعها تمر بمهارة ودقة فوق مناطق الجسد المتخشب المختلفة ، بينما وقف (حورى) مسندًا ظهره على حائط قريب يرمقها غير مخف إعجابه ، وغير مخف ضيقه ..

ـ هل انتهيتِ ؟!

سألها زافرًا بحرارة ، فأجابته وهى تتفحص الذراعين :

ـ ليس بعد .. لا تكن عجولاً !

قال متهكمًا :

ـ لو كنت أعرف أن دورى سيقتصر على مصاحبتك كالخادم !

رفعت إليه ناظريها ، وضيقتهما سائلة :

ـ لفعلتَ ماذا ؟!

مط شفتيه قائلاً فى امتعاض :

ـ لا شىء !

قالت وقد ارتسمت على شفتيها الرفيعتين بسمة ذات مغزى :

ـ أنت تعشق دور البطل الأوحد .. أليس كذلك ؟!

جعلته مقولتها يشرد لحظة ، ثم هز كتفيه قائلاً بلامبالاة :

ـ على الأقل لا أحب الأدوار الثانوية !

ـ دائمًا ما تنجح فى خطف الأضواء فى نهاية المطاف ..

نظر إليها عابسًا كأنه يسألها فى صمت عما تعنى ، فأدارت دفة الحديث بذكاء قائلة :

ـ لشد ما أنت مختلف عن (محب) !

ـ هذا ما أقوله دائمًا !

قالها مستعيدًا لامبالاته ، فقالت وبسمتها تتسع :

ـ المهم هو معنى ما تقول !

عاود النظر إليها متسائلاً ، ولما وجدها قد عادت تنهمك فيما تعمل ؛ آثر أن ينتهى حوارهما عند هذه النقطة ، لئلا يزداد غموضًا فوق غموض !

ـ هل توصلتِ إلى شىء ؟!

سألها فى جدية ، فقالت :

ـ ليس ماكنت أصبو إليه .. أولاً ، سبب الموت غير واضح ، توقف القلب فجأة كما يتوقف قلب أى إنسان عادى كل يوم ..

ـ هل ينفى هذا شبهة القتل ؟!

ـ ليس تمامًا ، هناك تعبير الهلع المعتاد فوق وجه الضحية إذا اعتبرنا هذا شيئًا ذا قيمة ..

ـ هذا بلا قيمة كما تقولين !

ـ بقيت نقطة غامضة واحدة .. الجلد !

ـ ما به ؟

ـ لونه متغير فى المناطق المكشوفة ، الذراعين والرأس والقدمين ، كأنه تعرض لحرق بسيط !

ـ حرق ؟

ـ النار الضئيلة قادرة على تحويل لون الجلد إلى الطيف الداكن ، وكذلك الضوء الشديد !

ـ هممممم .. الضوء الشديد !

قالها ممسكًا بذقنه وقد استغرق فى التفكير ، فرفعت رأسها إليه متسائلة :

ـ تفكر فيما قاله القائد (تاوى) حتمًا !

ـ الكاهن الأخير تلاشى فى الضوء حسب كلماته ، والخادمة الصغيرة تلاشت فى الضوء حسبما قال العبدان ..

ـ على الأقل هذا يؤكد صدق الجميع !

ـ ولا يضيف شيئًا للنقطة الأكثر أهمية .. الجريمة التالية !

ـ ربما ...

وبترت عبارتها شاهقة فى فزع ، فالتفت (حورى) إليها على الفور ليجدها قد تراجعت عن منضدة التحنيط وعلى وجهها أقصى أمارات الرعب ، فسألها منزعجًا :

ـ ماذا حدث ؟!

ـ الـ .. الـ .. العينان !

ـ ما بهما ؟!

سألها منزعجًا وهو يدنو من المنضدة فى سرعة ، وإذ بلغها أسرع يفرق بإصبعيه جفنى (حنت) بينما أجابت (نفرو) وقد ارتعش صوتها :

ـ لم .. لم أر فى حياتى كلها شيئًا .. كـ .. كهذا !

وابتلعت ريقها بصعوبة متمتمة :

ـ إنهما .. إنهما .. بيضاوان تمامًا !

... وكانت على حق ..

(حورى) نفسه شعر بالرعب وهو يحدق فى عين (حنت) البيضاء من غير سوء ..

كقلب (أوزوريس) !

!!!!

* * *

الساحة الخارجية لبيت النبيل (حنت) قبيل غروب الشمس ..

نقل (تاوى) بصره بين العبدين اللذين أخذا يتكلمان بلغة موطنهما الأم ، وبين (محب) الذى أخذ يحاورهما بنفس اللغة فى طلاقة ، فى حين لم يفهم هو من الحديث حرفًا ..

طال الحوار قليلاً ـ أو هكذا كان شعور (تاوى) ـ حتى التفت إليه (محب) قائلاً :

ـ لا يتحدثان إلا عن السحر .. يؤكدان أن (شيرى) قد أشع جسدها ضوءًا مبهرًا ، ثم سقط النبيل (حنت) صارخًا فى ألم ، وعندما خبا الضوء وجدوه بلا حراك ، فى حين تلاشت الفتاة ولم يبق إلا ملابسها والجعران الأصفر الذى كان يستقر فى قلادة على صدرها !

ـ صدقهما .. لقد رأيت أمرًا مشابهًا بأم عينى ليلة أمس ..

هز (محب) كتفيه قائلاً :

ـ ليس هذا بيت القصيد بالطبع .. لكنهما يجهلان كل شىء عن (شيرى) .. سألتهما إن كان لها معارف يملكون جعارين مشابهة فقالوا إنهما لم يكونا يتحدثان معها من الأصل نظرًا لاختلاف اللغة !

ـ يدهشنى أنك تتقن لغتهم المعقدة هذه !

ـ سيدهشك أكثر أنها أول ما عملوه لنا فى (لوتس) !

قالها (محب) غامزًا إياه فى مرح لم يتناسب مع الموقف المعقد ، فغير (تاوى) الموضوع وقال :

ـ لم نكن نعقد عليهما الكثير من الآمال لحسن الحظ .. مازال لدينا زوجة القتيل وابنه الوحيد ..

ـ وجدة الخادمة .. فهمت منهما أنها كانت موجودة ساعة وقوع الحادث ..

ـ هذه أيضًا لا تضعها فى الحسبان .. لقد أصابتها صدمة الحادث بفقدان للقدرة على الكلام ..

ـ حقًا ؟ أم أنه محض ادعاء ؟!

ـ لن نستطيع إجبار عجوز فى أرذل العمر على الحديث دون أن تريد !

ـ صدقت !

وتجاوزا بوابة البيت إلى ردهة الاستقبال الواسعة ، حيث تراصت مقاعد عديدة من الخشب وأعواد البوص ، وشت بمهارة صناعها ويسر حال مقتنيها .. على المقعد الأفخم جلست امرأة مليحة فى أواسط العقد الخامس من العمر ، لم يفقدها العمر جمالها ، ولم يجعل الحزن نظرات عينيها أقل قوة وحدة .. ارتدت السواد وجلست فى شمم دل على صلابة عريكتها وجمود متأصل فى طباعها .. وبجوارها جلس شاب فى مقتبل العمر الجميل ، شابهت ملامحه ملامحها بما لا يدع مجالاً للشك فى كونه ابنًا لها ، وإن بدت ملامحه أكثر ميلاً للرقة ورهافة الحس .. وفى الركن

البعيد تكومت على الأرض بقايا بشرية لامرأة نوبية ، تاهت معالم وجهها فى الأسود الذى ترتديه ، وإن أطلت التجاعيد الغائرة منه بكل وضوح ..

ـ السلام عليك يا سيدتى ..

حيا (تاوى) أعلى المتواجدين مكانة كما تقضى الأعراف ، فنطقت السيدة بصوت حازم فى غير اصطناع :

ـ وعليك يا سيدى ..

ـ أنا (تاوى) نائب وزير الجنوب ، وهذا أحد رجالى المخلصين ، جئنا نبحث عن سر رحيل النبيل العظيم ، زوجك يا سيدة (نوب) !

نظرت (نوب) فى كراهية بينة إلى المرأة العجوز فى الركن البعيد ، وقالت :

ـ ليس فى الأمر سر .. قتلته الخادمة الهاربة !

لم تبد العجوز حراكًا ، وقال (محب) محاولاً ألا يفسد مرحه اللاإرادى جلال المأساة :

ـ لكن العبدين يا سيدتى يقولان ...

ضربت بقبضتها المضمومة ذراع المقعد ، وهتفت :

ـ تبًا للعبيد وللخادمات .. كلهم حثالة ، طفيليات متسلقة ..

لو كان الأمر بيدى لأمرت بحرقهم جميعًا فى أوسع ميادين (طيبة) على مرأى من الناس ومسمع، أو بتقديهم قربانا جماعيًا على منبح (آمون) فيتطهر العالم من سحرهم وغيهم ..

اختلس (تاوى) نظرة إلى العجوز التى بدت كتمثال من الحجر الأصم، فى حين قال (محب) فى هدوء :

ـ سيدتى .. لماذا هبط السيد (حنت) إلى غرفة الخادمة ليلة أمس ؟!

صمتت (نوب) برهة، قبل أن تجيب :

ـ ليعاقبها على ما اقترفت يداها ..

أحس (محب) أنه قد أمسك بخيط، فحاول أن يتتبعه إلى النهاية :

ـ وماذا اقترفت يداها ؟ هل سرقت شيئًا ؟! أو ...

ـ كادت تسرق !

ـ مزيد من الإيضاح لو تكرمتِ !

ـ كادت تسرق ولدى الوحيد !

قالتها (نوب) وقد احمرت وجنتاها المحتنقتان، بينما لاح الاضطرابٍ جليًا فى وجه (آنى)، الذى ازدرد لعابه وهو يقول ملتفتا إليها :

ـ ماذا تعنين يا أمى ؟!

صاحت فيه (نوب) وقد أعماها الغضب عن الحزن :

ـ أعنى ما فهمت يا (آنى) .. لقد عرف أبوك كل شىء ليلة أمس .. بحث عنك فى أنحاء البيت ولم يجدك ..

إحدى الخادمات أخبرته أنها سمعتك تطلب من تلك الهاربة الملعونة، قاتلة أبيك أن تقابل صديقتها .. استشاط غضبًا وهبط يسألها عنك .. قتلته الملعونة .. قتلته الملعونة ..

صرخ (آنى) وقد صدمه الأمر بشدة :

ـ كلا .. كلا .. هذا ليس صحيحًا ..

ـ بل هو عين الحق والحقيقة يا (آنى) !

واستمرت تجلده بسياط كلماتها :

ـ .. أراد لك دومًا أن ترتقى إلى مصاف رجال الدولة العظام .. خطط لك مستقبلاً حافلاً بالإنجازات والوعود .. وفجأة .. وجد أنك قد سقطت فى قاع بئر بلا قرار .. أسقطتك فيه الملعونة وصديقتها .. هكذا هم العبيد دومًا .. ملاعين حاقدون على أسيادهم .. جعلتك الحقيرة تنحدر إلى مصاف الدهماء بدلاً من السمو لأعلى .. معنى أن تقع فى حب فتاة منهم، أن تصبح منهم يا (آنى) !

ـ هذا ليس صحيحًا .. ليس صحيحًا بالمرة !

حاول (محب) أن يتدخل فى حوارهما الهستيرى الحـاد قائلاً :

ـ معذرة ، ولكن .. من صديقتها هذه ؟!

التفت إليه (آنى) هاتفًا كمن لدغه عقرب :

ـ لا أحد .. هذا هراء .. محض افتراء وهذيان !

بادلته أمه الصياح بأفضل منه :

ـ أنت تكذب يا (آنى) .. تريد أن تتستر على قاتلة أبيك !

ـ لا أعرف عم تتحدثين يا أمى !

وحاولت أن تلين قليلاً من لهجتها وهى تقول :

ـ أخبرهم عنها ، وسترشد عن الخادمـة القاتلـة حتمًا ، أخبرهم من هى .. أرجوك !

ـ كلا .. هذا غير صحيح .. لم أكن أعرف هذه الخادمة ، لم تكن بالنسبة لى أكثر من خادمة فى منـزل .. لا أعرف أحدًا من صديقاتها أو معارفها ..

قالها (آنى) فى إصرار ، فنهضت أمه لتصيح فى هيـاج عظيم :

ـ ليكن يا (آنى) .. افعل ما شئت ، لكنى أتبرأ من بنوتك .. وأبوك أيضًا يتبرأ منك فى العالم الآخر ، ما دمت قد آثـرت قاتلة عليه !

وغادرت القاعة دون مزيد من الكلام ، تاركة النار تـأكل عيون الحاضرين ..

ـ .. والآن ؟!

سأل (آنى) وقـد حـاكى وجهـه الشـاحب وجـه مومياء عتيقة ، فقال (محب) ببساطة :

ـ السؤال لك ..

قال (آنى) متلعثمًا :

ـ صدمة الحادثة جعلت أمى تفقد رشدها .. كل ما قالتـه لم يحدث !

ـ حقًا ؟

سأله (تاوى) فى شك مبين ، فقال (آنى) كمـن يريد إنهاء الضغط الواقع عليه قبل أن ينفجر :

ـ أجل .. هل أستطيع تقديم أى مساعدة أخرى ؟!

نظر (تاوى) إلى (محب) فى يأس ، لكن عينا الأخير برقتا بشدة وهو يقول :

ـ أجل .. سؤال أخير ..

واقترب منه مخرجًا لفافة بردى من بين ملابسه ، فردها أما عينيه وسأله :

ـ أتعرف صاحبة هذه الصورة ؟!

كانت الصورة التى رسمها (محب) بالحبر الأسود للفتاة التى ابتاع منها ثوب الكتان .. رسم سريع لكنه متقن ..

أمعن (آنى) النظر فيها ، وسال خيط من العرق على صدغه قبل أن يقول محاولاً كبح جماح توتره :

ـ كلا .. لا أعرفها ..

أمعن (محب) بدوره النظر فى خلجاته المرتعشة ، ودارت فى رأسه فكرة واحدة ..

هذا الفتى يكذب بلا شك !

★ ★ ★

٥ ـ عجوز ..

ـ ما معنى ما تقولان ؟!

خرج السؤال من بين شفتى (تاوى) محملاً بدهشة مستبعدة ، بعد أن فرغ (حورى) و(نفرو) من إلقاء ما آل إليه عملهما فى المعبد أمامه و(محب) ، بالغرفة الرئيسية لمبنى وزارة الجنوب ..

ـ لامعنى له إن كنت تعنى السؤال حرفيًا ، قائد (تاوى) ..

قالها (حورى) وتعبير وجهه الأسمر يتخذ سمتًا منزعجًا ، فحاول (محب) أن يخفف من ثقل الجو قليلاً بقوله :

ـ ربما سرقت الغربان سواد عينه !

واندهش إذ سمع (حورى) يقول بنفس الانزعاج :

ـ ربما نعم .. وربما ألف ألف احتمال آخر .. كل هذا بلاقيمة إن أردنا الحقيقة !

قالت (نفرو) متحسسة مواطئ كلماتها :

ـ لعلك تعنى مجددًا أن هذا لا يقودنا إلى الجريمة التالية ..

هتف (حورى) ساخطًا :

ـ أعنى أننا ندور وندور حول أنفسنا ـ كالماشية المربوطة أعناقها فى ساقية ـ بلاجدوى .. وبلا هدف محدد .. ودون خيط شحيح من الضوء نسترشد به !

وأشار إلى النافذة المفتوحة متابعًا :

ـ لقد حل الظلام بالفعل ، وهى مسألة وقت فحسب حتى تقع الجريمة الثانية .. وها نحن أولاء نجتمع لنروى عن ابيضاض عين قتيل الأمس ، وعن الشجار الأسرى المؤثر الذى دار فى منزله ، دون أن تكون لنا القدرة على الفعل الإيجابى ، أو حتى التفكير المنظم الذى قد يكون من شأنه إيقاف الكارثة القادمة ..

قال (تاوى) مثبتًا بصره على وجهه المكفهر :

ـ لقد فعلنا كل ما فى وسعنا ، وعثرنا على حلقة تربط بين الخادمة المختفية بابن القتيل ..

ـ كلها تكهنات قد تصيب وقد تخطئ .. والوقت ضيق كما نعلم !

قالها (حورى) مشيحًا بذراعه فى ضيق ، فلوح (محب) بكفيه هاتفًا :

ـ لقد حاولت جاهدًا أن أعرف هويتها من الابن ، ولكن ..

عض (حورى) شفته ، وقاطعه مغمغمًا :

ـ لو كنت معكما هناك فلربما ...

قاطعه (تاوى) بدوره ، قائلاً بنبرة هى الصرامة القاطعة نفسها :

ـ لايحدد الأدوار ويوزعها هنا سواى ، وليحتفظ كل صاحب رأى آخر برأيه لنفسه !

تحاشى (حورى) النظر إليه ، ولمح بطرف عينه بسمة (نفرو) الباهتة .. لابد أنها تهنئ نفسها على صحة تحليلها لشخصيته ..

نعم ، هو يحب النجاح ويمقت الفشل .. فهل أجرم ؟!

ـ لقد أمرت بوضع (آنى) تحت مراقبة واحد من جنود الشرطة ..

قالها (تاوى) بلهجة تقريرية ، ثم تابع مستطردًا :

ـ لابد أن توتره مما عرف الليلة سيدفعه إلى مقابلة الفتاة التى يحبها بطريقة أو بأخرى .. وعندما يحدث نكون قد وصلنا لأول الخيوط الحقيقية ذات القيمة ، فإذا كانت هى صاحبة الصورة ـ التى رآها (محب) فى زحام السوق ـ نكون قد عثرنا على أحد الجعارين ، وأبطلنا مفعول الجعران الذهبى .. وإن لم تكن ، فكونها صديقة للخادمة (شيرى) يعنى أن فرصة تعرفها على صاحبة الصورة كبيرة للغاية !

صمت بعدها مجولاً بصره بين وجوههم القلقة ، وقال محاولاً إشاعة الطمأنينة المفقودة :

ـ أعلم أن الوقت يركض فى الاتجاه المعاكس .. لكنه كل ما فى وسعنا الآن كما أسلفت ..

غمغم (حورى) ممتعضًا :

ـ لننتظر إذن حدوث معجزة !

بمجرد إتمامه لعبارته ، دلف واحد من رجال الشرطة إلى الحجرة موجهًا حديثه إلى (تاوى) :

ـ هناك من يطلب رؤيتك بالباب يا سيدى ..

ـ من ؟!

سأل (تاوى) بغير اهتمام ، فقال الشرطى :

ـ امرأة يا سيدى .. امرأة عجوز طاعنة فى السن !

سأله (محب) مأخوذًا :

ـ نوبية ترتدى السواد ؟!

أومأ الشرطى له برأسه علامة الإيجاب ، وأردف :

ـ قالت إنها تعمل خادمة فى منزل النبيل الراحل (حنت) !

هتف به (تاوى) متلهفًا :

ـ أدخلها على الفور !

امتثل الشرطى لأمره وخرج يجيبها ، بينما غمز (محب) (تاوى) وهو يقول فى حبور :

ـ كانت تدعى إذن يا سيدى !

والتفت إلى (حورى) قائلاً فى لهجة ذات مغزى صريح :

ـ من كان يتحدث عن المعجزات منذ قليل ؟!

هز (حورى) كتفيه وقد امتزج فى وجهه الكسوف بتجدد الأمل ، وحاولت (نفرو) أن تدارى بسمتها وهى تقول :

ـ يبدو أنها تحدث أحيانًا !

مضت دقيقة ـ شعروا بها كألف عام ـ قبل أن يعاود الشرطى الدخول ، والمرأة النوبية العجوز تتوكأ على ذراعه وتسير بمحاذاته فى بطء السلحفاة تجر خطواتها جرًا ..

تركها الشرطى واقفة فى منتصف الغرفة واستأذن بالمغادرة ، وابتدأها (تاوى) قائلاً فى رصانة لم تخل من لين :

ـ أنت إذن جدة الخادمة (شيرى) يا أماه ..

نظرت إليه المرأة من خلال عينيها الغارقتين فى الغضون ، وقالت واجمة :

ـ وأنت من أصحاب المكانات العليا .. لكنك تحمل قلب رجل شريف !

تبسم (محب) ضاحكًا من قولها ، وهتف فى جذل :

ـ صدقت يا جدتى .. قليلون هم أصحاب المكانة الشرفاء حقًا ..

تفرست فيه العجوز حتى فرغ من قهقهته ، وقالت :

ـ أنت ممن يعشقون الحياة .. وهؤلاء دائمًا ما تكون أعمارهم قصيرة !

لم يحر (محب) جوابًا ، فقال (حورى) ساخرًا :

ـ هل تقرئين الغيب والأفكار ؟! أم لعلك من المنجمين وطاردى الأرواح الشريرة ؟!

ـ لقد تحدث البطل ..

قالتها العجوز وقد حولت بصرها إليه ، وأردفت بلهجتها العميقة :

ـ .. أنت الذى لا ترضى بأن يتحول الضوء عن شخصك القوى من الخارج .. الهش كفراشة من الداخل ..

قطب (حورى) وقد غزا أعماقه الضيق .. لماذا يصر الجميع على نعته بهذا الوصف البغيض ؟! أيملك روحًا استعراضية تميل للتظاهر بالفعل دون أن يدرى ؟!

ـ أما أنت ..

أشارت المرأة إلى (نفرو) التى كانت ما تزال صامتة ، ساهمة ببصرها فى المجهول ، فرفعت الأخيرة ناظريها إليها سائلة ؛ ولما يستوعب عقلها الشارد الموقف بعد :

ـ أنا ؟!

ـ فتاة مسكينة .. دفنت قلبها العذرى فى العلم والمعرفة ، لكنه الآن يشق عليها عصا الطاعة ؛ التى ركن إليها سنين أطول من طويلة ..

شعرت (نفرو) بأنفاسها تتثاقل ، وبلسانها يعجز عن الحركة ، وتجهمت قسمات (محب) المشرقة على الدوام ، بينما قال (حورى) الذى لم يسمع الجزء الأخير من حديثها أصلاً :

ـ لم تحضرى إلى هنا لتتحدثى عن دواخلنا يا جدة !

أومأ (تاوى) برأسه مؤيدًا رأيه ، وقال عاقدًا ساعديه أمام صدره :

ـ بالفعل .. بالتأكيد لديك ما تقولينه بشأن ما حدث أمس !

قالت :

ـ ليس أكثر مما تعرفون .. كل شىء غير مفهوم .. حفيدتى ذهبت بفعل شر مستطير ، والسيد (حنت) مات تحت تأثير نفس الشر .. عقلى الذى أنهكته السنون يعجز عن إدراك كل ما حدث ..

ـ ليس المهم ما حدث .. هل تستطيعين أن تدلينا على أى من صديقات حفيدتك ؟!

سارع (حورى) بسؤالها قبل أن يسبقه أحدهم ، فصمتت العجوز مليًا قبل أن تجيب :

ـ إن كنت تقصد صاحبة الصورة التى عرضها صاحبك على السيد (آنى) ، فـ ...

بذهول عارم سألها (محب) وقد جحظت عيناه :

ـ تعرفينها ؟!

قالت بنفس هدوئها المسن العميق :

ـ لمحت الرسم من بعيد .. لكن عينى لم تفقدا قدرتهما الخارقة على التمييز بعد ، إنهما آخر ما تركته لى شيخوختى ..

ـ ومن تكون ؟!

سألها (تاوى) منفعلاً ، فأجابت على الفور :

ـ (آهورة) .. صانعة الأثواب المسكينة المضطهدة فى عالم لا يرحم ..

ـ إنها تصنع الأثواب بالفعل !

هتف بها (محب) وقد بلغت به الحماسة مبلغها ، وسألها (حورى) ضاربًا قلب الهدف مباشرة كعادته :

ـ وهل تعرفين أين تسكن ؟!

ـ لن أجيب قبل أن أحصل على إجابة ..

ـ سلى ما شئت !

قالها (محب) متلهفًا ..

ـ هل سيسهم هذا فى منع خطر ؟!

ـ بالتأكيد .. خطر جسيم يهدد كيان البلاد بالتداعى ..

قالها (تاوى) ، فجاوبته بنظرة طويلة ..

ـ ألست تثقين بقولى ؟!

ـ بلى .. أثق ..

وتنفست الصعداء ثم أردفت :

ـ جهزوا عربة .. وسأدلكم على الطريق !

ـ فى الحال ..

أسرع (تاوى) يأمر جنوده بتجهيز العربة ، فى حين أفاقت (نفرو) أخيرًا من شرودها وسألت المرأة :

ـ أخبرينى يا جدتى .. ألم تلاحظى شيئًا غريبًا فى عينى النبيل (حنت) قبيل موته أمس ؟!

سألتها المرأة مقطبة :

ـ شىء مثل ماذا ؟!

ـ ابيضاض زائد مثلاً ..

ـ كلا ..

خيب جوابها أمل (نفرو) ، قبل أن تستدرك :

ـ لكن عينى (شيرى) هما اللتان كانتا غارقتين فى البياض قبل أن تذهب .. بياض كالح شاحب مخيف !

★ ★ ★

ـ لا تتأخرى يا (مريت) ..

اخترق الهتاف أذن (مريت) وهى تتجاوز باب الدار الصغير ، حاملة جرة فخارية فارغة ..

ـ سأملؤها من القناة القريبة وأعود على الفور يا أمى ..

هتفت (مريت) .. فأجابتها الأم بمزيد من الهتاف :

ـ احذرى من الظلام !

ـ لاتخشى شيئًا .. لن تلتهمنى التماسيح الليلة ..

فرغت من دعابتها وسارت نحو أحراش البوص التى تطل الدار عليها ، وقبل أن تبلغها فعلاً وجدت من يقبض على ذراعها فى قوة ، فشهقت فى رعب وكادت تصرخ ..

ـ كلا يا حبيبتى ..

سمعت الهمس وشعرت بيد توضع على فمها لتذوى صرختها فى داخله ..

ـ .. هذا أنا ، (آنى) .. لاتدعى خوفك الدائم يفسد كل شىء !

ـ (آنى) .. ما الذى أتى بك الآن ؟! وهنا ؟!

نظرت إلى الدار وشعرت بأنها ستموت رعبًا ..

ـ لاوقت للشرح يا (مريت) .. هيا .. تعالى معى الآن !

سألته مذعورة :

ـ إلى أين ؟!

أجابها لاهثًا :

ـ سنهرب بعيدًا عن (طيبة) .. سنبحر إلى بلاد أخرى ونبدأ معًا حياة جديدة ، بعيدًا عن كل ما يربطنا بأخطاء وخطايا الماضى ..

نظرت إلى الدار وشعرت بأنها ستموت رعبًا ..

نظرت إليه (مريت) عاجزة عن الرد ، فتابع برجاء :

ـ كل شىء جاهز .. القارب والمتاع وبعض قطع الذهب والفضة .. هيا ، لنذهب الآن !

ـ (آنى) .. هل جننت ؟!

ـ بل العقل ما أقول .. اسمعينى .. لن أستطيع بعد اليوم أن أبقى فى (طيبة) .. لقد وشت إحدى الخادمات أمس بـ (شيرى) وأخبرت أبى أنها جسر يصل بينى وبين واحدة من صديقاتها .. ظنها أبى وأمى مؤامرة ضد مستقبلى الباهر الذى يخططان له منذ نعومة أظفارى .. وانتهى الأمر بموت أبى ؛ فى الحادث الذى تلوكه الأفواه بتهم شديدة منذ البارحة ..

ـ هل تعنى أن (شيرى) قد قتلته بالفعل ؟!

ـ لم أقل هذا .. لكن أمى تصر على الفكرة وتؤمن بها .. اليوم زارنا نائب وزير الجنوب فألقت بكل ما فى جعبتها أمامه وأمامى .. ولولا هذا لما عرفت شيئًا ..

وصمت كأنه يستجمع أفكاره ، قبل أن يقول فى رهبة :

ـ و .. يبدو أن لصديقتكما الثالثة يدًا فى هذا الأمر الغامض ..

ـ من ؟! (آهورة) ؟!

ـ أجل .. عرض علَى شرطى غريب الأطوار رسمًا لها ، وسألنى إن كنت أعرفها !

ـ و .. ماذا قلت ؟!

ـ أنكرت معرفتها بالطبع .. لكنى فقدت منذ لحظة المواجهة تلك شعورى بالأمان وقدرتى على التفكير .. كل ما يجول بخاطرى الآن رغبة ملحة فى ترك المدينة ، الفرار بجلدى من كل هذه الضغوط الرهيبة ..

ـ هذا جنون يا (آنى) .. جنون ونزق !

ـ (مريت) .. تعلمين أكثر من غيرك رغبتى القديمة فى التمرد على كل أوضاع حياتى ، وتحطيم كل القيود التى أرفل فيها منذ جئت لهذه الدنيا .. تعلمين أننى كنت أنتظر لحظة حاسمة لاتخاذ القرار ، لحظة تواتينى فيها الشجاعة على الفعل ، لحظة أرفض فيها ما خططه لى أبواى وما يريدانه لى فى الغد .. لست لعبة يا (مريت) يلهون بها ويحركونها على هواهم كيفما شاءوا .. من حقى تحديد مصيرى .. أبسط حقوقى أن أختار ، وسأتحمل تبعات اختيارى مادام اختيارى .. لن أجد أصلح من هذه اللحظة يا (مريت) .. وكما اخترت وقررت .. عليكِ أنتِ أيضًا أن تختارى ..

كاد قلب (مريت) يقفز من بين ضلوعها ، و(آنى) يطرح الأمر بين يديها ضاغطًا على كل حرف من حروف كلماته :

ـ إما أن تأتى معى الآن .. ونترك (طيبة) .. وإما أن تبقى هنا .. ولن ترينى بعدها أبدًا ..

شعرت (مريت) بأنها على شفا حفرة من الانهيار ، وصمتت .. فحاصرها (آنى) أكثر :

ـ ما قولك ؟!

ماذا تفعل ؟! ماذا تفعل ؟! ماذا ؟!

ـ هيا .. وقت الرحيل قد أزف ..

لم تشعر إلا والجرة الفخارية الفارغة تسقط منها ، وبيدها تعانق كف (آنى) وهما يبتعدان ..

وعلى حطام الجرة المحطمة ، حط غرابان أسودان ؛ بدد نعيقهما هدأة الليل المخيم ..

* * *

تسللت (آهورة) على أطراف أصابعها إلى طرف الدار ، عابرة بجوار (ثاى) الذى يغط بجسده الضخم فى النوم العميق ، مبتهلة فى أعماقها ألا يصحو من نومه لعربدة الليل إلا بعد فترة أخرى من الزمن ..

هذا هو الوقت المناسب ..

أمها غادرت الدار فى زيارة لإحدى الجارات ، لتروح عن نفسها الكليلة قليلاً ، و(ثاى) مستلق كجبل ينقبض وينبسط ، غائب فى غياهب عالم النوم السحرى ..

أخرجت من صدرها كيسًا قماشيًا ، وتحاشت أن يصدر عنها ، أى صوت وهى تخرج من داخله القطع الفضية التى تدخرها ، التى زادت اليوم بمقدار سبعين قطعة دفعة واحدة ..

واحد .. اثنان .. ثلاثة ..

دائمًا يحلو لها أن تخرج مدخراتها من حين لآخر ، تتلذذ بعدها قطعة قطعة ، تحلم بيوم تتحرر فيه من ربقة العمل الشاق ، ويكون لها كيان مستقل بذاته ، منفصل عما سواه .. وعمن سواه .. قدوتها فى ذلك الملكة الأم (حتشبسوت) ..

عشرون .. واحد وعشرون ..

امرأة أصبحت ملكة برغم أنوف الجميع ، وشقت طريقها الشائك فى الصخر الأصم ..

هل تستطيع أن تحقق بالعزم والإرادة واحدًا على الألف مما حققته هذه الملكة المعجزة ؟!

خمسة وأربعون .. ستة وأربعون ..

طوبى لمن ولدوا من سلالة الملك والعظمة والسؤدد .. إن ..

ـ ماذا تفعلين ؟!

شهقت عندما اخترق صوت (ثاى) الغليظ أذنها ، سقطت بضع قطع فضية على الأرض مصدرة رنينًا معدنيًا وهى تحاول إخفاءها فى الكيس ..

كيف لم تنتبه له عندما استيقظ ؟!

كيف ؟!

ـ لا .. لا شىء !

توقف عن فرك عينيه بقبضتيه عندما تناهى الرنين إلى أذنيه ، وحدق فى (آهورة) هادرًا كالسيل :

ـ هذا صوت قطع فضية .. أعرفه جيدًا ..

ـ كلا .. كلا ..

ـ ماذا تخفين عندك يا فتاة ؟!

حاولت أن تلملم قطعها المتناثرة فوق الأرض بقلب يبكى دمًا ، فى حين نهض هو من فوق فراشه بالفعل ..

ـ لا شىء .. قلت لا شىء ..

اقترب منها بخطواته الواسعة ، صافحت عيناه لمعان الفضة وسط بحر الظلمة ، فانحنى يلتقط القطع بعينين توحش فيهما الجشع ..

ـ فضة .. عرفت من صوتها أنها كذلك !

صاحت فيه :

ـ اتركها .. ليست لك ..

مد قبضته إلى الكيس الذى تحتضنه قبضتاها بقوة ، وجذبه هاتفًا :

ـ أراهن على أن لديك المزيد منها ها هنا ..

ـ كلا .. اترك الكيس .. اتركه ..

تمزق الكيس بفعل الجذب ، وتناثرت الفضة كلها على الأرض ، لتصيح (آهورة) فى ألم رهيب :

ـ لاااااا .. مالى !

انحنى (ثاى) مجددًا يملأ جيوبه وقبضتيه بالقطع اللامعة ، و(آهورة) تدفعه محاولة أن تمنعه عبثًا ، بدمع هتون سال من عينيها مدرارًا ..

ـ ستكون ليلة خاصة .. سأسكب أنهار الجعة على كل ندماء الشراب والمجون !

ـ كلا .. اترك أموالى .. اتركها !

نهض (ثاى) بعد أن أتى على القطع كلها ، شعرت (آهورة) بضآلتها أمامه ، وشعرت بيده تمتد إلى الجعران الأزرق المستلقى فوق صدرها ..

ـ أعطنى هذا الجعران أيضًا .. أريد أن أشعر بالثراء الفاحش هذه الليلة ..

قالها فى فرح شيطانى ..

لم ينتبه فى غمار نشوته المستبدة لعينيها اللتين تحولتا إلى اللون الأبيض ؛ الكالح الشاحب المخيف ، وهى تتراجع صارخة فى هستيريا :

ـ كلا .. اتركنى .. اتركه .. اذهب .. اذهب بعيدًا ..

ضحكة شر ، أعقبتها صيحة عالية !

صيحة احتضار .. امتزجت بنعيق آلاف من الغربان المحلقة ..

فى الخارج توقفت عربة كبيرة يجرها زوجان من الخيل المطهمة ، أشارت امرأة عجوز بداخلها إلى الدار قائلة :

ـ هنا تسكن الفتاة ..

وثب (تاوى) من داخل العربة ، ونظر إلى أسراب الغربان فى السماء ثم غمغم :

ـ يبدو أننا قد تأخرنا !

وتمتم (محب) بصوت غير مسموع :

ـ لم أر هذا التجمع الرهيب من الغربان فى حياتى من قبل !

ولم ينبس (حورى) ببنت شفة ، شاهدته (نفرو) ـ بنظرات خاصة من فوق العربة ـ يدنو من الدار فى سرعة وخلفه (تاوى) و(محب) ، لكنها لم تر أبدًا ما رأوه عندما اقتحموا الباب الموصد ..

ضوء أزرق مشع ، تلاشى فجأة .. وبقى مكانه ثوب نسائى من الكتان ، وجعران صغير أزرق ..

وعلى مسافة دانية رقد جسد ضخم هامد ، لشخص تمتلئ جيوبه وقبضتاه بالقطع الفضية ..

ـ مات ..

نطق بها (حورى) وقد مال بأذنه فوق صدر الرجل .. لم يكن قلبه يدق ..

ـ وبالطبع ..

أتبع بها وهو يفرق جفنيه بأصبعيه .. كانتا بيضاوين تمامًا كـ ...

كلا .. صار الأمر مكررًا إلى حد الملل !

وفى معبد الملكة (حتشبسوت) بالبر الغربى ، ران صمت بليغ على القاعة الشرقية ، وكل من فيها يحدق فى حزمة الضوء التى انبعثت من العمود إلى الجعران الذهبى فى المنتصف ..

ـ لقد وقعت الجريمة الثانية يا مولاى ..

نطق بها الكاهن الأكبر فى وجوم ، ولم يكن الأمير (تحتمس) فى حاجة لسماعها !

★ ★ ★

٦ ـ غربان ..

ـ لابد أن السر يكمن فى الضوء !

قالها (حورى) محدقًا فى جثة (ثاى) ، ورجال الشرطة ـ المنتشرون حول الدار المنكوبة ـ يخرجون به محمولاً فوق محفة ..

انعكست أضواء المشاعل الكثيرة على وجه (نفرو) وهى تسأله :

ـ أى سر ؟!

أجاب دون أن ينظر إليها :

ـ العين البيضاء !

عقد (تاوى) حاجبيه راتيًا ببصره نحو الجدة العجوز ، التى أقعت فى سكون إلى جوار العربة متوحدة مع ظلام الليل ، ثم سأله بعد هنيهة :

ـ ماذا تعنى ؟!

قال الفتى متناسيًا فشلهم فى منع الجريمة الثانية قبل وقوعها :

ـ قالت العجوز إنها رأت حفيدتها على هذه الحال قبل اختفائها ، وقد رأينا بأنفسنا عيون الضحيتين .. أضف إلى ذلك ما سمعناه ورأيناه عن الضوء الصادر من جسد الفتاتين قبل أن تذهبا ..

وصمت للحظة ، ثم تابع كأنه يسعى جاهدًا لقنص فكرة مراوغة :

ـ إذا حاولنا الربط بين هذا وذاك ، فلربما وجدنا صلة ما بين الأمرين !

قال (محب) متفهمًا :

ـ تعنى أن الضوء يبدد سواد الأعين مثلاً ؟!

هزَّ (حورى) رأسه أن نعم ، وقال مؤيدًا :

ـ بالنسبة للجناة والمجنى عليهم على حد سواء .. نعم .. شيء من هذا القبيل !

ـ هذا إذا صح اعتبارك الفتاتين من الجناة !

قالها (محب) مازجًا الجد بالهزل كديدنه .. وغمغم (تاوى) بعدها وقد حاول عقله جاهدًا أن يهضم الأمر :

ـ هذا عصىَ على التخيل حقًا !

لوّح (حورى) بسبابته وهو يقول :

ـ لا تنس أننا نتحدث عن قوم عملهم ما لا قبل لنا أو لأحفادنا بتخيله !

ـ نعم ..

تنهد (تاوى) قائلاً إياها بأسى ، ثم أردف :

ـ لكنهم ما قدروه حق قدره ، فنالوا ما يستحقون !

بادله (حورى) التنهيدة بأحر منها ، وقال كبر كان يغلى بالحمم :

ـ .. المشكلة أن هذا الهراء لن يقودنا لشيء !

قال له (محب) باشمئزاز ضاحك :

ـ ما زلت متشائمًا !

ـ بقيت فرصة واحدة ضئيلة لمنع الكارثة !

قالها (حورى) بضيق بالغ ، وأيده (تاوى) بقوله :

ـ نعم ، لم يبق إلا الجعران الأحمر ..

همست (نفرو) مهونة الأمر قليلاً :

ـ ما زال أمامنا يوم كامل ..

بنفس الروح المرحة قال (محب) :

- أحب هذا الأسلوب فى التفكير ..

ثم إنه أشار إلى العجوز هاتفًا كأنه وجد طوق نجاة فى بحر لجى :

- لم لا نسعى لسؤال الجدة من جديد ؟!

نظر الثلاثة إليه مندهشين وعيونهم تتساءل : كيف غابت هذه الفكرة البسيطة عنهم ؟!

وفى لحظات كانوا يتحلقون حول العجوز الجالسة تقرض هموم عمرها الضائع إلى جوار العربة ..

- هل هذه الفتاة هى التى يحبها (آنى) يا جدتى ؟!

سألها (محب) وقد تبسط معها إلى حد الجلوس بجوارها على الأرض الترابية ..

- كلا يافتى .. الأخرى هى (مريت) !

سألها (حورى) كأنه يحقق مع متهم :

- هل كانت صديقة مقربة إلى حفيدتك ؟!

- أجل ..

أجابت المرأة باقتضاب ، فصاغ (تاوى) السؤال بصورة أبسط :

- هل كان لحفيدتك صديقات مقربات أكثر منها ومن (آهورة) ؟!

- كلا .. لم يكن لها سواهما !

دق قلب (نفرو) بشدة وهى تتمتم :

- إنها هى إذن .. الجريمة الثالثة !

أمسك (محب) بيد المرأة المعروقة وقبلها فى احترام أدهش الجميع ؛ حتى المرأة نفسها .. وقال باسمًا :

- ستدلينا إذن على مسكن (مريت) !

قالت العجوز :

- لا أستطيع يافتى ..

سأل (حورى) مستنكرًا :

- ولم ؟!

رفعت إليه رأسها المثقل مجيبة :

- لأنى لا أعرف مكانه !

ولما نظر إليها بشك ، سارعت تفسر قائلة :

- « (آهورة) كانت صديقة (شيرى) منذ الطفولة ، لهذا

لا أجهل أين تقيم .. أما (مريت) فقد انضمت لصداقتهما فى وقت متأخر تخشبت فيه مفاصلى وتجمدت أطرافى ولم أعد قادرة على الحركة .. لم أزر دارها فى حياتى .. (شيرى) كانت تذهب دومًا لزيارتها وحدها ..

استدار (حورى) إلى (تاوى) سائلاً فى عصبية :

ـ ماذا سنفعل إذن ؟!

وقبل أن ينهى عبارته ، ارتفعت صيحة نسائية عالية ، زلزلت الأرض والنفوس ..

ـ (اااااهووووورااااا) ..

وأمام الدار ، بين رجال الشرطة المحدقين فى تساؤل ، انهارت امرأة ـ تجاوزت العقد الخامس ـ على ركبتيها صارخة ومولولة ولاطمة خديها ..

ـ من هذه ؟!

رفع (تاوى) عقيرته بسؤال الرجال الواقفين حولها ، فأتاه الجواب من أحدهم :

ـ زوجة القتيل يا سيدى !

قالت العجوز والحروف تتلكأ فى حنجرتها المشروخة :

ـ أم (آهورة) المسكينة .. ثكلت فى البدء الزوج والحبيب ..

عاندتها الأيام ومنحتها الشقاء على يد (ثاى) البشع .. وها هى ذى تثكل الابنة الوحيدة .. فلذة الكبد ومهجة الروح ومنية النفس العليلة ..

طفرت الدموع من عينى (محب) وهو ينظر لها مغمغمًا :

ـ يا للمأساة !

جاهدت (نفرو) لتمنع نفسها من البكاء ، وإن لاح التأثر جليًا فى قسماتها .. وصمت (تاوى) تقديرًا لجلال الموقف ، أما (حورى) فقد هزّ كتفيه قائلاً فى لهجة من لايعنيه الأمر :

ـ جيد .. ربما نعرف منها ـ بعد أن تبتلع الصدمة ـ أين تقيم (مريت) !

صدم قوله نفوسهم لكن أحدًا لم يعره التفاتًا ، واستمرت المرأة تولول وتحثو التراب فوق رأسها وتردد اسم ابنتها فى صراخ يدمى القلوب ويبكى الحجر الأصم ..

ـ سيدى (تاوى) .. سيدى (تاوى) ..

التفت الجميع نحو مصدر النداء ، وانعقد حاجبا (تاوى) بشدة عندما رأى جنديًا من جنود الشرطة يعدو نحوه من بعيد ، ويلهث بعنف ..

ـ انتظرونى لحظة ..

قالها لهم وابتعد نحو الجندى ، غاب قليلاً فى حوار معه لم يصل إلى مسمع أحد ، وعاد بعدها ووجهه يحاكى يومًا عاصفًا ..

ـ ما الخطب ، قائد (تاوى) ؟!

سأل (محب) وهو ينهض نافضًا تراب الأرض من فوق ملابسه ، فقال (تاوى) مشيرًا إلى الجندى :

ـ إنه من كلفته بمراقبة (آنى) !

ـ هل وقع مكروه ؟!

سألته (نفرو) وقد تسلل الخوف إلى صدرها ، فصمت (تاوى) مرتبًا الأفكار فى رأسه المزدحم ، وأجاب فى النهاية :

ـ (آنى) هرب ..

ـ أهذا كل شىء ؟

أجاب (تاوى) سؤال (حورى) :

ـ هرب مع (مريت) ..

هتف (محب) مصعوقًا :

ـ إلى أين ؟

هزّ (تاوى) رأسه يمنة ويسرة وهو يجيب قائلاً ببطء :

ـ لا أدرى .. الجندى سمعهما يتفقان ، سيستقلان قاربًا عبر النهر ويغادران (طيبة) كلها .. فلم يكذب الرجل خبرًا وجاء يبلغنى ..

ـ هذا ما كان ينقصنا ..

قالها (حورى) وهو يضرب كفًا بكف فى سخرية مريرة ، وران بعدها الصمت فوق الرءوس .. ذلك الصمت الذاهل اليائس اللعين ، الذى لم يبدده ـ بالطبع ـ إلا نشيج الأم الثكلى ..

ونعيق الغربان المتواصل ..

* * *

تهادى القارب فى عرض النهر الساكن ، كأنه حبة لوز فى راحة عملاق ..

(آنى) عارى الصدر يحرك المجدافين الخشبيين بقوة وجلد ، والعرق يغرق وجهه وذراعيه المفتولين ..

(مريت) تريح رأسها فوق فخده ، وتمدد جسدها بطول القارب ، وتعبث أصابعها بالجعران الياقوتى الأحمر المعلق فى رقبتها ..

ـ (آنى) ..

ـ ماذا يا حبيبتى ؟

ـ أشعر بأن كل هذا ليس إلا حلمًا كاذبًا ، سيطلع النهار حتمًا وسأفيق منه ..

رفع رأسه لأعلى نحو السماء ، وقال مبتسمًا فى إرهاق :

ـ بالنسبة للنهار فأنت شبه محقة ، بقى القليل جدًا على بزوغ الفجر ..

لم تبتسم لدعابته ، قالت فى شرود :

ـ أكاد لا أصدق أننى لن أرى أسرتى الصغيرة مرة أخرى ، وأننى غادرتهم هكذا دون وداع ..

قال فى حنان :

ـ سأكون لك الأب والأم ، والأخ والأخت ، والصديق والصديقة .. أسرة جديدة وحياة جديدة ودنيا أخرى نصنعها معًا ، خطوة خطوة .. ويومًا فيومًا ..

وتنهد مغمغمًا بنبرة حالمة :

ـ سنسكن فى البداية بيتًا صغيرًا على ضفاف النهر .. سأعمل طوال النهار وأعود لك آخر الليل حاملاً الزهر والأغانى ، فأجد بين يديك الراحة والسكينة والأمان ..

سألته بشغف محاولة أن تشاركه حلمه :

ـ وننجب أطفالاً كثيرين ؟!

ضحك فى نشوة ثم قال :

ـ يملئون الدار لعبًا وشقاوة وبراءة .. أصحبهم للصيد فى العطلات وأربيهم على المحبة وعشق الحرية ..

صمتت .. حاولت جهدها أن تعيش الحلم بين جوانحها ، فوجدت العبرات تغافلها ، وتهرب منها ..

ـ ماذا يا (مريت) ؟! ألن ننتهى من كل هذه الأحزان ؟!

كفكفت الدمع وهى تنهنه قائلة :

ـ لا أدرى يا (آنى) .. لا أدرى يا حبيبى .. لكنى لا أشعر بالسعادة ، أشعر بأننا مقبلون على محنة ، وأن نجاتنا منها لن تتحقق ..

ترك (آنى) المجدافين ، واحتضن كفيها فى راحتيه ، هامسًا :

ـ لا تخشى شيئًا مادمت معك .. ولا تفكرى إلا فى غدنا الأجمل فقط .. اتفقنا ؟!

لم ترد ..

ـ اتفقنا ؟!

قالت لترضيه :

ـ اتفقنا !

ترك كفيها ـ راضيًا ـ بكل رقة ، وعاد يحرك المجدافين فى مياه النهر الساكنة ، فى حين لم تشعر هى بأى تحسن ..

هناك محنة قادمة .. تحسها قاب قوسين أو أدنى ..

ما هى ؟! ليتها تدرى !

لكن ما الذى بيدها فعله ، سوى أن تترك نفسها للتيار ، تتهادى مثل القارب فى مياه النهر ، كأنها حبة لوز فى راحة عملاق ؟!

★ ★ ★

أشرقت شمس اليوم الثالث .. والأخير ..

وقف الأمير (تحتمس) فى الشرفة العليا للمعبد يملأ ناظريه من الصحراء الممتدة أمامه إلى الأفق البعيد ..

ترى .. هل حانت النهاية حقًا ؟!

هل تغرق (طيبة) فى مياه النهر الذى وهبها الحياة ؟!

هل تصبح الإمبراطورية الشاسعة التى يهابها من فى الشرق والغرب ؛ مجرد حروف متراصة فى برديات المؤرخين البلهاء ؟!

ياضيعة العمر والجهد والمخاطرة إذن !

ـ مولاى الأمير .. متى استيقظت ؟!

أتاه هتاف الكاهن الأكبر من خلفه ، فقال بصوت خفيض دون أن يلتفت نحوه :

ـ لم أنم طوال الليل !

سمعه الكاهن فقال فى شىء من الحرج :

ـ عذرًا يامولاى .. أنت تعلم أن نوم الكهنة مقدس لذا لم ..

قاطعه (تحتمس) رافعًا ذراعه :

ـ أعلم .. أعلم .. لقد قضيت ردحًا من حياتى فى تلقى علوم الكهنوت بمعبد (آمون) كما لاتجهل !

ـ لهذا تنتظر (طيبة) ملكًا من نوع خاص فى عهد قادم لاريب ..

قالها الكاهن فى تملق ظاهر ، فقال (تحتمس) وبسمة مرة تلوح فوق قسماته المتعبة :

ـ هذا لو قدر لـ (طيبة) أن تظل حتى عهده !

قال الكاهن وإحساسه لايطابق ما يتفوه به :

ـ سيزول الخطر الليلة يامولاى .. سيزول حتمًا ..

تجاهل (تحتمس قوله ، والتفت إليه يقول :

ـ أخبرنى .. هل تعنى بردية كهنة الظلام أنه لابد أن يموت واحد من العائلة الملكية فقط ؟! أم يجب أن يسيل دمه فوق الجعران الذهبى ؟!

ـ مولاى ..

تمتم بها الكاهن ، بينما واصل (تحتمس) مواصلاً تجاهله :

ـ هل سيلان الدم فوق الجعران مسألة واجبة ؟! أم مجرد تشبيه بلاغى ليس أكثر ؟!

تجرأ الكاهن وسأله :

ـ فيم يفكر مولاى ..... ؟!

أجبنى ايها الكاهن ..

لم يملك الكاهن أمام صرامته وحزمه إلا أن يقول :

ـ أعتقد أنها مسألة واجبة يا مولاى !

وأردف بعد تردد بالغ :

ـ هل تفكر فى أن ..... ؟!

ولم يجد الجرأة الكافية لإتمام السؤال ، ولم يهتم الأمير بكلماته على الإطلاق ..

عاد ينظر عبر الشرفة ، مائلًا ناظريه من الصحراء الممتدة أمامه إلى الأفق البعيد ..

★ ★ ★

منتصف ظهيرة اليوم الثالث .. والأخير ..

ـ النتيجة سلبية تمامًا ..

نطق بها أحد رجال الشرطة فى لهجة تقريرية بحتة أمام (تاوى) الذى اربد وجهه حتى كاد يغزوه السواد ..

ـ شكرًا .. انصرف ..

انصرف الشرطى ، والتفت (تاوى) إلى فريق (لوتس) المجتمع فى الغرفة الرئيسية لمبنى وزارة الجنوب ؛ فرفع ذراعيه عن آخرهما ثم تركهما يسقطان إلى جواره قائلاً فى يأس :

ـ كما سمعتم !

قال (محب) :

ـ ربما لم يمشطوا النهر جيدًا !

بانهزامية رد (حورى) :

ـ ولن يفعلوا .. أنت تتحدث عن نهر (النيل) فى موسم الفيضان ، اتساع مهول وروافد لاحصر لها وتفرعات وقنوات ومستنقعات .. بالإضافة إلى أن القارب المطلوب يسبقهم بمسافة زمنية كبيرة ، أى أنهم كلما اقتربوا منه ابتعد هو .. وهكذا دواليك !

قالت (نفرو) وقد انتقلت إليها عدوى الانهزامية :

ـ وبحثنا فى دار (مريت) لم يسفر عن شىء ذى قيمة !

أيدها بقوله :

ـ إنهم يرفضون حتى قبول فكرة هروبها ، ويظنون أنها قد لاقت مكروهًا عندما خرجت لملء الجرة ليلاً ..

محاولاً إسباغ لمسة من التفاؤل قال (محب) :

ـ علينا إذن أن نفكر فى الخطوة التالية !

هتف (حورى) بانزعاج عصبى :

ـ لقد احترق عقلى وأنا أحاول التفكير فى هذه الخطوة اللعينة ..

قال (تاوى) وقد بلغ التوتر منه مبلغه :

ـ ليس أمامنا إلا إيجاد وسيلة للبحث عن (آنى) و(مريت) !

ضحك (حورى) ضحكة مبتورة وهو يقول محنقًا :

ـ ما أسهل الحديث ، وما أصعب التنفيذ..

ـ لن نستطيع التفكير وأنت تتصرف بهذه الروح يا (حور) ..

قالها (محب) موبخًا ، فقاطعه (حورى) فى هياج :

ـ صه .. اصمت ..

قال (تاوى) مستاءً :

ـ (حورى) .. لاتتجاوز أقصى ذراعك !

ـ عذرًا ، قائد (تاوى) .. لكنى لاأتصور أن علىّ أن أتقبل

ـ وبصدر رحب ـ نهاية (طيبة) هذه الليلة !

ونعق غراب خارج نافذة الغرفة ، فاستدار (حورى) إلى جهة الصوت ، ورفع قبضته المضمومة هاتفًا بانفعال :

ـ اصمت عليك ألف لعنة !

ـ جن الفتى !

همس (محب) بها لنفسه مندهشًا من بلوغ (حورى) هذه المرحلة المزرية ، وتضاعفت دهشته عندما رآه يهدأ فجأة ، ويستغرق فى التفكير لحظة ، وفجأة ..

ـ نعم .. الغربان !

.. وفجأة ، أشرق وجهه بالانشراح ، وهتف بالعبارة فرحًا ، ثم هرع إلى النافذة مطالعًا سماء (طيبة) التى سطعت فى كبدها الشمس ، كقرص من ذهب ..

ـ حالته تأخرت !

غمغم (محب) بها وهو يرمق (حورى) فى شفقة ، بينما سأل (تاوى) وقد شعر بأن الفتى قد توصل لشىء ذى قيمة أخيرًا :

ـ مالها الغربان يا (حورى) ؟!

نظر (حورى) إليهم ، ثم صاح بحماسة :

ـ هى مفتاح اللغز ، قائد (تاوى) !

وحاول أن يهدأ وهو يستطرد شارحًا :

ـ منذ تلاشى الكاهن (قن) فى الضوء وهى تملأ أجواء (طيبة) ، وتتواجد أينما حدثت جريمة قتل .. كأن لها حاسة لاتخطئ نحو المكان الذى سيشهد الجريمة المزعومة .. الغربان سوداء ، وهم كهنة ظلام أسود .. وقد كانت تظلل مسيرتهم نحو (طيبة) .. فهل سخروها بعلمهم الواسع كالمحيط لتتبع خطاهم وآثارهم ؟!

لن نعرف أبدًا .. لكنهم إن كانوا قد فعلوا ، فقد صنعوا لأنفسهم نقطة ضعف من حيث لا يدرون !

فرقع (محب) بإصبعيه هاتفًا فى جذل :

ـ فهمتك .. مازلت عبقريًا برغم كل شىء يا صديقى !

أشار (حورى) إلى خارج النافذة وعاد يستطرد :

ـ الغربان فى طريقها الآن نحو مكان الجريمة الثالثة والأخيرة .. إنها تتجه نحو الجنوب .. ويمكننا أن ..

التقط (تاوى) منه خيط الحديث ، وأكمل :

ـ .. أن نتتبعها لتقودنا نحو (آنى) و(مريت) !

هتفت (نفرو) منبهرة :

ـ رائع ..

وهرع (تاوى) يأمر بإعداد عربة تصلح لرحلة طويلة إلى الجنوب ..

وتجدد الأمل !

★ ★ ★

غروب اليوم الثالث .. والأخير ..

★ ★ ★

- استرح قليلاً يا (آنى) ..

- لابد أن نصل إلى (كوش) قبل الفجر يا حبيبتى ..

- أنت تجدف منذ الأمس .. لابد أن التعب قد هدك ..

- عندما أراك يزول كل التعب ..

- استرح أنت وسأجدف أنا قليلاً ..

- يداك أرق من أن تحتملا خشونة التجديف ..

- ألم نتفق على التشارك فى كل شىء ؟!

- بلى .. ولكن ..

- لا مزيد .. هيا .. أفسح لى مكانك ..

فعلها (آنى) باسمًا ، وهو يتساءل بينه وبين نفسه : لماذا تكاثرت الغربان هكذا فجأة فى كبد السماء الملونة بألوان الغسق ؟!

★ ★ ★

- مولاى الأمير ..

- أجل ..

- بدأت الكريستالة تتوهج توهجًا خافتًا داخل العمود الرأسى ..

- سآتى على الفور ..

هبط الكاهن الأكبر من الشرفة العليا ، تاركًا أميره يحدق - بنظرات خاوية - فى خنجر معدنى حاد ..

.. وقد أضمر أمرًا ..

★ ★ ★

- (حورى) .. أسرع قليلاً ..

- بدّى أن أفعل .. لكن الخيول تجرى فى أعنتها كما ترى ..

- تُرى .. هل نصل فى الوقت المناسب ؟!

- أتعشم يا (محب) .. ها هى ذى الغربان قد تجمعت فى مكان غير بعيد ..

- بسرعتنا هذه سنصل إلى هناك فى غضون ساعة .. ما رأيك يا (نفرو) ؟!

- أعتقد أنك على صواب !

قالتها (نفرو) الشاردة ، وهى ترنو بناظريها إلى الغربان البعيدة ، ومشاعرها تغلى فى أعماقها ..

كألف بركان ..

★ ★ ★

الليلة الثالثة والأخيرة ..

نظـرت (مريت) إلى (آنى) الذى غلبـه النـوم من فرط التعب ، وابتسمت فى حنان هامسة :

ـ أحلامًا سعيدة يا حبيبى !

وأخذت تواصل التجديف ..

لم يجعلها الخوف من الظلام والغربان تتوقف ، ولم تفت آلام ذراعيها الرهيبة فى عضدها ..

لابد أن يصلا إلى (كوش) الليلة كما قال (آنى) ..

جدفت .. وجدفت .. وجدفت .. حتى ..

ـ تعبت دون شك !

أفزعها قـول (آنى) ـ الـذى ظنتـه ما زال نائمًـا ـ حتى النخاع ، شهقت فضحك (آنى) منها وقال :

ـ لن نبدأ حياة جديدة وأنت ما زلت تفزعين هكذا !

ـ (آنى) .. إننى ..

لم تعجبه نبرتها ، فقال لها فى قلق :

ـ ما بك يا حبيبتى ؟!

ـ لا أدرى .. صدقنى .. لكنى أشعر بأننى لست على مـا يرام .. لست كذلك على الإطلاق ..

قال شاعرًا بالذنب :

ـ أتعبك طول التجديف لا ريب ..

ـ لا .. لا .. ليس الأمر كذلك .. لكن .. لا أدرى ماذا أقول !

ـ (مريت) .. ما بك .. أنت ترتجفين كالمريضة ..

كانت ترتعش بالفعل من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها ..

ـ (آنى) !

ـ .. بل أنـت مريضـة بـالفعل .. تبًّـا لـى .. لـم يكـن مـن المفترض أن أنام وأدعك تجدفين !

ـ كلا يا (آنى) .. أرجوك .. حاول أن تفهمنى ..

ـ حملها وجلس فى مكانها ، ولم ينتبه فى خضـم قلقه عليها إلى أن عينيها قد تحولتا إلى اللون الأبيض الصريح ..

ـ سأجدف إلى البر وأبحث عن طبيب .. لابد أن تشفى الليلة تمامًا ..

كانت تنتفض ، وتحاول أن تقول :

ـ (آنى) .. أنا ..

ـ ش ش ش .. لا تقولى شيئًا ..

وانتبه صائحًا :

ـ (مريت) .. رباه .. ماذا حدث لعينيك ؟!

وعلا صياح آخر على صياحه ؛ صياحه آت من جهة البر القريب :

ـ (آآآنى) ..

ـ من ؟!

التفت (آنى) نحو الهاتف كالملسوع هاتفًا بها ، كان (تاوى) ينادى من الضفة :

ـ اترك القارب فى الحال .. أنت فى خطر جسيم !

همس (آنى) لنفسه ساخطًا :

ـ اللعنة .. لقد وصلوا إلىّ قبل أن أصل إلى (كوش) ..

ثم صاح :

ـ أرح نفسك يا نائب الوزير .. أخبر أمى أننى قد انعتقت من أسرها إلى الأبد ..

ـ لاتخلط الأمور يا (آنى) .. الخطر لايتهددك وحدك بل يهددنا جميعًا ..

ـ محاولة رخيصة .. ابتعدوا جميعًا ..

وازدادت انتفاضات (مريت) ، فاستدار نحوها وهو يقول باكيًا :

ـ عذرًا يا حبيبتى .. لا أدرى ماذا أفعل .. لا أدرى ماذا أفعل !

نطقت (مريت) بصعوبة :

ـ امـ .. تثل .. لمـا .. يقـ .. ولون .. ياحبيبـ ... ى !

ـ ما بك يا (مريت) .. أرجوك لا تفعلى هذا بى ..

وعلى الضفة قال (حورى) فى حزم :

ـ لا فائدة ، قائد (تاوى) .. سأذهب إليهما !

ـ انتظر ، ربما لا تصل فى الوقت المناسب وينالك الضرر ..

قالها (تاوى) فى خوف أبوى ، فقال (حورى) فى بسالة :

ـ (طيبة) تستحق التضحية !

وخاض فى المياه بسرعة وخفة ، فرمقه (محب) بنظرات وجلة وهو يتمتم :

ـ هذا هو (حورى) !

ـ انتبه لنفسك يا فتى ..

صاح بها (تاوى) و(حورى) يقفز لتحتويه المياه ، فى حين وضعت (نفرو) راحتيها فوق صدرها فى وجل ..

ـ (آنى) .. سـ .. ـا .. عد .. نـى .. لأقـ .. ـف !

ـ (مريت) ..

توقفت الحروف فى حنجرة (آنى) الذى أغرقت الدموع وجنتيه ، فعادت (مريت) تحاول أن تقول :

ـ أر .. جـ .. ـو .. ك !

تحامل (آنى) على نفسه ، فنهض وأنهضها بصعوبة ، وبكى بحرقة عندما صافحت عيناه عينيها الغارقتين فى اللون الأبيض الكالح ، الشاحب ، المخيف ..

نعقت الغربان فوقهما وقد تكاثرت أعدادها حتى كادت تصنع سماء أخرى ، ومن بين بكائه الحار هتف (آنى) فاقدًا لأعصابه :

ـ ماذا بك يا (مريت) ؟! ماذا بك ؟!

التفتت إليه (مريت) ، وأحس بطعنة بين أضلاعه عندما رأى عينيها .. قالت :

ـ لـ .. ـقد .. حـا .. ن .. الـ .. وقـ .. ـت !

و ....

★ ★ ★

ـ الكريستالة تتوهج بشدة ..

صاح بها كاهن يقف أمام العمود الرأسى مراقبًا إياها ، فاستدار الكاهن الأكبر نحو المنصة الحجرية هاتفًا :

ـ مولاى الأمير .. إن الخطر ..

وبتر عبارته مع اتساع عينيه فى ذعر ، جعله يصيح :

ـ مولاى .. ماذا تفعل ؟!

.. كان الأمير (تحتمس) يقطع بخنجره الصغير جلد رسغه الأيمن ، ليسيل منه خيط دم فوق الجعران الذهبى ..

و ....

★ ★ ★

وقفزت (مريت) فى مياه النهر ..

ـ كلا .. (مرييييت) !

شق صياح (آنى) الملتاع كبد الليل ، وفجأة ..

أشع ضوء أزرق باهر من أسفل المياه ، وارتفعت نافورة عالية من المياه قلبت القارب رأسًا على عقب ..

ـ هل ترون ما يحدث ؟!

شق صياح (أنى) الملتاع كبد الليل ، وفجأة ..
شعٌ ضوء أزرق باهر من أسفل المياه ..

هتف بها (محب) كأن مسًا من الجنون أصابه ، فعقد (تاوى) حاجبيه متمتمًا :

ـ ترى .. هل مات (آنى) ؟!

وندت عن شفتى (نفرو) كلمة واحدة :

ـ (حورى) !

انتبه (محب) فى غمار الموقف لكلمتها ، وفجأة ..

اخترق رأس (حورى) سطح الماء ، وامتلأت عيناه من المشهد الجلل ، فهتف :

ـ رباه .. هل تمت الجريمة الثالثة بعد كل ما حدث ؟!

وران على المشهد صمت مهيب ، وارتسمت فوقه علامة استفهام كبيرة ..

ترى .. هل تمت الجريمة بالفعل ؟!

ـ (مرييييت) .. (مرييييييت) !

ارتفع هتاف (آنى) إلى عنان السماء التى تحلق فيها الغربان ـ فجأة ـ حاملاً معه الجواب ..

ـ المسكين .. فدته بنفسها !

قالها (محب) فى ألم حزين والعبرات تنحدر مغرقة وجهه النحيل ، وامتزج فى أعماق (نفرو) الحزن بالطمأنينة !

ـ (مرييييت) .. أين أنت يا (مريت) ؟!

أشاح (تاوى) بوجهه عن منظر (آنى) وهو يضرب بذراعيه فى الماء بحثًا عن حبيبته التى ذهبت ، حتى لايؤثر فيه أكثر ، بينما أطلق (حورى) تنهيدة راحة غامرة !

المهمة انتهت بنجاح ، و(طيبة) سوف تعيش لبضعة آلاف أخرى من السنين ..

وهذا هو المهم !

★ ★ ★

٧ ـ جعـران ..

فى الساحة الواسعة أمام معبد الملكة (حتشبسوت) بالبر الغربى لـ (طيبة) توقفت عربة صغيرة يجرها زوج من الخيول ، وهبط منها (تاوى) منتصب القامة ، مرفوع الهامة ، تعكس جبهته العريضة أشعة شمس النهار المستديرة كالقرص الذهبى ..

قاده رجال الحرس الملكى الخاص إلى القاعة الشرقية ، بين جموع الكهنة والفنانين والنحاتين ، وهناك قابله الأمير (تحتمس) بنفسه ..

ـ مرحبًا يا ...

قالها الأمير (تحتمس) وقد بدا فى حالة نفسية جيدة ، وصمت يتذكر الاسم دون جدوى ..

ـ .. ماذا كان اسمك ؟!

ـ (تاوى) ياسمو الأمير ..

ـ .. نعم .. نعم .. (تاوى) ..

ونظر إليه الأمير بإعجاب ، ثم قال :

ـ أنت من خيرة الرجال الثقات الذين أنجبتهم (طيبة) .. سمعت أنك قد بلغت موقع الجريمة الثالثة قبل أن تقع بالفعل ..

قال (تاوى) فى تواضعه الفطرى الذى لايفتعله :

ـ لافضل لى فى كل ما حدث يا مولاى .. الفضل لجنود (لوتس) من جديد ..

ـ هؤلاء الفتية بارعون حقًا ..

قالها (تحتمس) مغتبطًا ، وأردف فى تمنٍ :

ـ سألتقى بهم يومًا ما .. أنا واثق من هذا !

وعاد يخاطب (تاوى) بقوله :

ـ لكن هذا لايمنع كونك خير قائد لهم ، ومهماتكم السابقة كلها تشهد بذلك !

لاحظ (تاوى) الضمادة التى تحيط برسغ الأمير الأيمن ، فقطب سائلاً وهو يشير إليها :

ـ لعلك لم تصب بأذى قريبًا يا سمو الأمير ..

نظر (تحتمس) إلى الضمادة ، ثم قال ضاحكًا :

ـ تقصد هذا ؟! لاتشغل بالك .. مجرد جرح بسيط ، الكهنة هنا بارعون فى علاج مثل هذه الأمور الهينة ..

ثم استطرد مستعيدًا ذكرى ما صار :

ـ لن تتصور منظرنا يا (تاوى) ونحن نواجه اللحظات الأخيرة الحاسمة .. كادت قلوبنا تتوقف عندما غادر شعاع الضوء الثالث مكانه فى العمود الرأسى ، وتوقف قبل أن يبلغ الجعران الذهبى بمسافة ذراع واحد .. ثم تلاشت حزم الضوء الثلاث فجأة ، وفقد الجعران الذهبى توهجه .. وذهب الخطر إلى غير رجعة ..

لم يفهم (تاوى) الكثير من قوله ، لكنه ابتسم متفاعلاً مع الغبطة التى تحدث بها الأمير ، وقال :

ـ نهنئ أنفسنا بذهابه يامولاى ..

قال (تحتمس) :

ـ يحق لك ذلك يا (تاوى) .. أخبرنى ، هل عاد (سيتى) من (منف) ؟!

أجاب (تاوى) :

ـ سيصل الليلة ، أو صباح الغد على الأكثر يامولاى ..

ـ إذن .. فلن أجد من هو أكفأ منك للقيام بآخر جزء من المهمة ..

أخفى (تاوى) استغرابه ، وقال ببسالة :

ـ ما تأمر به ..

استدار (تحتمس) لرهط الكهنة العاملين بدأب حول المنصة الحجرية ، وهتف :

ـ انتهيتم ؟!

أجابه الكاهن الأكبر من بينهم :

ـ أجل يا مولاى ..

ـ إلىَ به إذن ..

دنا الكاهن الأكبر منه على عجل ، ممسكًا جسمًا مغطى بقطعة من القماش المزركش ، وبمجرد وصوله رفع الأمير القماش على الفور ، وقال :

ـ سيكون عليك يا (تاوى) أن تدفن الجعران الذهبى فى أبعد نقطة تستطيع الوصول إليها من الصحراء ..

حدق (تاوى) برهبة فى الجعران الذهبى المستكين بين يدى الكاهن الأكبر فى وداعة لا تشى بالخطر الذى كان كامنًا فى داخله ، وقال مأخوذًا :

ـ بالطبع يا مولاى ..

قرص من الشمس ، كرة من النار المشتعلة ، جناحان مفرودان كأنهما يستنفران النجوم البعيدة ، أطراف دقيقة كأنها سنابل من القمح لم تنضج ، رأس مدبب شره للدمار ، وضوء غامر يكسو الذهب البراق ..

ـ كما ترى ..

قال (تحتمس) ..

ـ .. برىء كأنه لم يكن ليحطم إمبراطوريتنا العظيمة بقوته الكاسحة !

تناوله (تاوى) من يدى الكاهن الأكبر ، وحدق فيه أكثر وأكثر ..

بالفعل ، ليس الآن أكثر من جعران برىء ..

جعران ذهبى برىء !

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

الرواية القادمة :

أسيرة الرمال

روايات مصرية للجيب

سلة الروايات

في كل رواية متعة دائمة !!

محمد سليمان عبد المالك

لوتس

الجمران الذهبي

وقبل أن يصرخ الأمير بالمزيد ، وقبل أن يعى أى من الواقفين ما يحدث ، ازدحمت سماء الحديقة بأسراب من الغربان السوداء القبيحة الناعقة ، لم يدر أحد من أين أتت ، ولا كيف أقبلت ، وفى نفس الوقت أشع جسد (قن) بضوء أزرق شفاف ، أعمى العيون عن الرؤية ، لكنه لم يمنع الآذان عن سماع المزيد من ... كاهن الظلام المنظوم ..

مطابع سلة الكتب

الثمن فى مصر ...
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم